عبد الباقي يوسف

سيامند وخجي

روايـــة

الفصل الأول

تأخذه في رفة جفن غامرة إلى جنة حضنها، تدهمه سحرية غفلة بكيمياء فوحة خدر غدت تدغدغ كريات دمه.

في ثنايا خدرية اللحظات السحرية، يستشعر بكل ذرة من ذراته أن خدّه لامس نعيم خدّها لتنهال إلى حاسة شمّه روائح زهور لم يسبق له أن أدركها من قبل.

أسبل جفنيه مستسلماً لبهاء حالة الخدر وهو يمتّع غمضة العينَين برؤية بديع كل زهرة ما فتئت أن تدنو إليه ليشم عبقها، ثم تمضي على جناح ياقوتة في دنّها ليأتي دور أختها في طابور زهري.

تتميز كل زهرة بطيب ريحها كما تتميز بلمسات جمالها: سيسيل، أوركيد، دوريندا، لوسين، راوند، رونزا، هامر، أنجوانا، فيولا، ليماس، أريس، سولين، نانيس، لوتس، ليللي، ميرام، لارين، ميليا، جوري، ليلك، باتونيا، بسنت، قرنفل، ياسمين، لافندر، نيرين، شقائق النعمان، بيحونيا، زنبق.

تستغرقُ به نشوةُ تأملٍ في بهاء حُسنِ كلِ زهرةٍ وهي تنثرُ إليه شذى عبيرها الفواح في رحابة ربوةٍ تسترخي في ظلالها الروح، وتستكين ذرات الحواس.
في ذروة ألق تلك اللحظات السحرية التي غمرته، لفتت نظره فراشة تحط على زهرة كليمانس القادمة إليه في دورها، وهي تحمل على جناح شاباً وسيماً، وعلى جناح صبية بالغة الحسن، تناغمت إذذاك على أوتار سمعه دغدغات نبرات عذبة: طاب وقتك.
انتبه بأن الصوت انبعث موحداً من الشاب والصبية، فاستجاب وقد اقتربا حتى ثبتت الوردة أمامه: طاب وقتكما.
انبعثت نبرات الشاب هذه المرة: أنت لا تعرفنا لأنك لم ترنا من قبل.
قال وقد أخذته دهشة وهو يرمقهما بعمق: مَن أنتما؟
ابتسم الشاب الوسيم وهتف: أنا سيامند، ثم ما فتئ أن التفت إلى الصبية مردفاً: وهذه حبيبتي خجي.
بدأ يوزع نظراته على سحنتي وجهيهما، وكأنه يكتشف فيهما قبسات من نورانية قوة الحب التي تسكنهما وهو يتمتم: وهل يوجد كردي لم تسحره قصة حبكما؟
صدح صوت الصبية الجميلة بأنس: هذا مبعث حبور لحبيبي ولي، ذكرانا التي تسكنكم هي نحن.

قال مخاطباً إياهما: تناقلت قصة حبكما الأثيرة على ألسنة الكرد سنة عقب أخرى حتى غدوتما ركناً في الذكرة الشفاهية لأمتكما.
قال سيامند: ما تعرفوه، هو جزء يسير من ظاهر حكايتنا.
أردفت خجي بنبرات رقراقة وهي تنظر إلى حبيبها نظرات مفعمة بالحب: أمّا ما خفي، فلا يعلم به أحد غيري وغير حبيبي.

عندئذ قال: يالي من كائن محظوظ بفرصة لقائكما في هنيهات العمر الثمينة هذه، كم سأكون ممتنّاً لكما إذا أبحتما لي بخفايا قصة حبكما المثيرة تلك.
تبادل العاشقان نظرات فيما بينهما كما لو أنهما يقعدان على كنز من الأسرار، ثم بعد قليل مدّ سيامند بصره إلى بعيد، وما لبثت أن تداعت لآلئ الكلمات الأسيرة على رطوبة لسانه كلمة إثر كلمة:
كان ذلك في غمرة عهد بعيد، بيد أن ذاكرتي ما تزال تحتفظ بكل لحظة من تلك اللحظات التي تغلغلتُ فيها، وشيّدتُ من خلالها مع حبيبتي لبنات صرح قصة حبنا التي لانملك سواها.

إنها عصارة العمر الذي عشته، ذاك العمر تتوّج باكتشافي خجي التي أضاءت لي حياتي، وأذاقتني طعم عسل الحياة، ونشوة خفقات القلب، كشفت لي ذاك الليل الحالك الذي كان يجثم على عمري، واستطاعت بقوة حبها أن تزيحه لتضفي إلى حياتي قيمة جديدة ما كان لي عهد بها.

خيّم سكون على ربوع المكان مع ركونه إلى صمت لم يستغرق طويلاً، حتى عاد صوته الهادئ يتناغم مع إيقاع ذرّات السكون: كان عمّي سامان يشدّد الخناق على كل مفصل من مفاصل حياتي، يحدّد لي كل حركة تبدر مني، يهيمن حتى على أي شرفة للمستقبل يمكن لي أن أظفر بنظرة متفائلة من خلالها إلى خارج أسوار سطوته.

كنتُ أنظر إلى تجمعات الأطفال في قريتنا (سليفا) يلعبون في الطرقات، أغبطهم على رحابة الحرية التي يلعبون في أفق فلكها، وأنا أتجرّع وخزات الأسى لأنني أعجز أن أكون أحدهم، وأشاركهم متعة اللعب في حلقات تلقائية الطفولة تلك.
أخذتْ سنوات عمري تُطوى سنة إثر سنة دون أن أتذوّق طعماً للطفولة، دون أن أكون أحد أطفال قريتي يوماً واحداً.

حينها تبدّا لي أن عمي لايقتصر نفوذه للاستيلاء على مرحلة من عمري، بل يبغي الهيمنة على مستقبلي برمته، ويوصد أي باب يمكن لي أن افتحه دونه حتى بلغتُ مبلغاً باتت مخيلتي تأبى فيه مواساتي بإطلالة متخيلة شطر الخلاص من هذه الانتكاسة التي أرزح تحت وطأتها، عندذاك لم أعد أرى في المستقبل أكثر من عجلة تكرار مملة للحاضر وللماضي، دون أن أرسم في ردهاته بصيص أمل.

أخذتُ أتقلّب في سعير الأفكار بين أن أسعى إلى ذاك الشكل الصادم من التمرّد، أو أذعن بوجوم لبراثن ما أنا فيه في كنف عمي الذي يبدو لي شديد الغموض، دون أن يفصح لي شيئاً من عالمه المبهم الذي كانت تشاركه فيه زوجته (هه تاو) الأمر الذي كان يلهب في نفسي شعوراً مدمّراً بالعدم حتى أنني في كثير من الأوقات كنتُ أخال بأنني غير موجود، لأن لاشيء يشير إلى وجودي بالنسبة إلي، وأن الشيء الذي من شأنه أن يحسسني بحقيقة وجودي هو معرفتي سبب عيشي في بيت عمّي بعيداً عن أبوَي. لذلك لم تكن الأفكار لتكف عن حفر أخاديدها في مخيلتي، فلماذا لاأعيش كسائر أطفال القرية في بيت أبي، وأنعم بأيام طفولتي، لماذا لاأتلقى دلال

أبوَي وأنا بأمس الحاجة إلى حنان أبوتهما لي، ثم ما سبب بقاء عمّي دون أولاد؟

بيد أنني لم أكن أتجرّأ حتى على توجيه السؤال إليه، لأن الإجابة التي حفظتها عن ظهر قلب من عمي هي: ستعرف ذلك حينما تكبر وتصبح قادراً على تحمّل المسؤولية.

حتى ترسّخ في عمقي يقين بأنني مهما كبرت، فسألبث صغيراً في نظره دون أن أكون قادراً على تحمّل مسؤولية تلك المعرفة الخفية عن أبوَي.

لبثتُ أتقلب في دفقات ذاك الإيقاع الخانق من الحياة حتى بلغتُ خمسة وعشرين سنة دون أن ألمس أي مرحلة من وهج مراحل تلك السنوات العجاف، ولبثتْ مشاعر الغربة تستبدّ بي حتى وأنا أرى مصادفة في درب ذهابي وإيابي إلى الحقل بعض الشبان الذين يجايلونني في العمر من أهالي القرية وهم يبدون غرباء بالنسبة لي، مثلما أبدو غريباً أمام أنظارهم.

على شوك ذاك العمر الذي ألفيتُ نفسي فيه، انتابني إحساس مباغت ذات يوم بأنني أكثر حرية مما يجسر عمي أن يحجرها علي؛ لكن حجم اليأس الذي أشعر به يبث إلى نفسي الإذعان، وخطر لي أن عمّي يستند إلى

إذعاني هذا في قمع أمنياتي، وما تتوق إليه نفسي من رغبة جامحة في الانطلاق نحو الحياة، فبتُّ أتخيلني طيراً حرّاً في قفص، عليه أن يسعى إلى فعل أي شيء حتى يلمس له منفذاً، فيفرّ بجناحَيه متحرّراً من ذاك القفص نحو رحابة طلاقة الحرية.

في سديم لجة الصباح الباكر، عندما كانت الديكة تستيقظ، وتدفع بنداءاتها المتعالية بقايا خيوط الظلام، كان صوتُ عمّي الأجش يخترق سمعي، ويوقظني حتى أسبقه في الذهاب إلى الحقل، ثم يعقبني عندما تغدو الشمس في خاصرة السماء.

أحياناً يأتي راكباً حماره عندما يحتاج البيت إلى خضار وفاكهة، كي نملأ الخرج عند عودتنا، وأحياناً يأتي سيراً على قدَميه عندما لايحتاج البيت شيئاً من الحقل، أو يحتاج شيئاً خفيفاً يمكننا حمله بأيدينا.
نمكث في مشقة عنايتنا بالحقل حتى ينال منا الأرق أقصى ما يمكنه أن ينال، ويمدّ الغروب خيوطه إلى معولَينا، عند ذاك تستجرّنا خطواتنا المنهكة حتى نبلغ البيت دون أن نجسرعلى فعل شيء سوى أن نتناول عشاءنا على

عجل دون أن نهنأ به، ثم نسلّم بدنينا للفائف نوم عميق تحت سطوة الإنهاك.

أغمض عينَي، ولا أفتحهما إلاّ عندما يخترق صوتُه أذنَي في غسق تلك الفسحة المبكرة التي أكثر ما يطيب فيها الاستغراق في النوم عقب كل ذاك الجهد العضلي المضني الذي بذلته: سيمكو .. انهض ياولد .. نوم الصباح يجلب الفقر ولا يطعمنا خبزاً.
وعندما أتماطل في النهوض وأنا أمطط جسدي برغبة جامحة لاستكمال نومي، يسحب الغطاء عني بشدّة وهو يصرخ بصوت محتقن: هل طرشت يا سيمكو .. ناموسز.
ثم يمدّ قبضته إلى كتفي، ويسحبني من الفراش بقوة وصوته المحتقن يتصاعد: قم بسرعة واغسل عن وجهك بول الشيطان.

أتجه إلى إبريق الماء، أملأه من البئر، تحت وطأة النوم الذي أفسده عليّ عمّي في ذاك البيت الذي لم يسبق لي قط أن شبعتُ فيه نوماً، ثم أشرع في الوضوء تحت شجرة اللوزالمرّ المزروعة في الحوش منذ سنوات طويلة، وكلمات عمّي تتداعى إلي بأنني عندما أتكاسل في النهوض من الفراش

مبكراً، يكون الشيطان في تلك الليلة قد بال على وجهي حتى أمكث في فراشي متكاسلاً بلا صلاة ، وبلا عمل، وكي لا أدعه يغلبني، عليّ أن أسارع في غسل وجهي دون أي لحظة ترد، أصلي ركعتَي الفجر، ثم استعدّ للذهاب إلى صلاة العمل كما يقول لي عمّي.
آنذاك ، لدى تفرّغي من الصلاة، تكون زوجة عمي (هه تاو) قد أعدّت صحناً من لبن الجاموس إلى جانب صحن حلاوة مع رغيف خبز.
أتناول طعامي مسرعاً، وما ألبث أن أبرح على عجل لأحظى بفرصتي الوحيدة للمشي برفقة صديقي الوحيد (راوند) الذي يماثلني في العمر.

كان راوند متعلقاً بي منذ سنوات الطفولة يغتنم أي فرصة سانحة كي نلتقي، أحياناً عندما نؤوب من الحقل، أراه بجانب باب بيتنا، فأتلكأ قليلاً ريثما يسبقني عمي في الدخول، وتُتاح لي لحظات للتوقف معه وتبادل بعض الأحاديث السريعة، وأحياناً أختلس وقتاً مما يلي العشاء كي نلتقي ونتحدّث تحت نافذة بيتنا.

أمّا في العيد، فكانت الفرصة متاحة لنا كي نمضي يومين متتاليين معاً، لأن عمّي كان يتوقف عن العمل في العيد، ويعدّ ذلك بمثابة عطلة لنا كي نرتاح فيها، فكنّا نعطل في السنة أربعة أيام، في العيدين الصغير، والكبير.

كان دوماً يقول لي: لقد خُلقنا لنكدّ ونشقى، نرتدي الثياب الفضفاضة الخشنة، وتتدفق قطرات العرق من أبداننا، دوماً تكون ثيابنا مبللة، في الصيف بعرق أبداننا، وفي الشتاء بمياه الأمطار.

نحن أبناء الجبال،،،

اعتادت أسماعنا على قصف الرعود والصواعق،،،

اعتادت عيوننا على رؤية الغيوم الداكنة، وقدحات البروق، ،،

اعتدنا أن نغفو على عواء الذئاب،

وفحيح الأفاعي،

وزمجرة الضباع.

نحن أبناء الجبال،

لا نملك سوى الكد والشقاء نطوي بهما صفحات الهموم من حياتنا.

لذلك قسّم الأرض إلى قطعتين، قطعة لزراعة الحنطة والعدس، وقطعة لزراعة الحمّص، والفول، والفاصولياء، والجبس، والبطيخ، تحفها أشجارالعرموط، والصنوبر، والكستناء، والبندق.
كان ذلك يجعل من عملنا مستمراً على مدار اثني عشر شهراً في السنة.
في الصباح عندما أخرج من البيت، أرى راوند واقفاً بانتظاري في الطريق، وأحياناً قبل أن أصل إليه، يجري إلي ويقبلني قائلاً بأنه اشتاق إلي كثيراً؛ ثم يضع كفه في كفي، ونمضي معاً إلى رحابة الحقل، نبقى حتى يلوح لنا طيف عمّي من بعيد قادماً إلينا، حينها يجرّ خطاه مكرهاً في درب العودة.
ذات يوم رأيته يهرع إلي وهو يقول: سيمكو .. اليوم رأيتك ي الحلم
قلت: كيف رأيتني يا رونكو؟
قال: اتفقنا أن نترك أهلنا وننطلق إلى جبال كردستان كي نعيش معاً ...
كل واحد منّا ركب حصاناً، ومضينا تاركين القرية خلفنا.
ثم صمت قليلاً وقال: سيمكو .. ما رأيك أن ننفّذ هذا الحلم ؟
وقفتُ أنظر إليه ملياً، بيد أنني لم أجبه على سؤاله.

لفتت نظره دموع أخذت تترقرق في عينَي خجي، وهي تصغي إليه وتغمره بفيض نظرات عينيها الولهتين، وكأنها في اعتكاف محراب عشق لانهائي

مع حبيبها على جناحَي فراشة ربوة العاشقين التي ترفرف بهما من فسحة إلى صنوتها طوع أمرهما.

أردف سيامند قائلاً: ذات ليلة ربيعية على غير طبيعتها، صرتُ أتقلّبُ في الفراش دون أن تدنو من جفني سنة سبات، وكما يومض برق في كبد سماء ملبدة بكثافة غيوم دكن، ومضت لمعة فكرة في رأسي، جعلتني أنتفض على إثرها كما لو أن صاعقة ارتمت من عليائها على بدني؛ لبثتُ أترنح مشتت الذهن تحت سطوة تلك اللمعة الغافلة كما لو أنني كاهن الليل، حتى أدركني صوت عمي هادئاً لأول مرة وهو يراني أقعد في الفراش عندما باغتني بدخوله، وغدا يحادثني بسحنة بشوشة، ويثني علي لأنني اعتدتُ على النهوض من تلقاء نفسي في ميقات الصلاة، والذهاب إلى الحقل، وهذا طالع حسن.

كانت ثمرة الفكرة آنذاك قد بلغت اختمارها في مخيلتي، فلم أنبس بكلمة حتى خرجتُ من البيت.

بعد قطع عدة خطوات في الطريق، لمحتُ راوند في انتظاري كعادته، وعندما التقينا، صرتُ أغالب غصة استقرّت في حنجرتي وأنا أتخيّل بأنني سأفارقه.

غدا منظره يتداعى أمامي وهو يعرّض نفسه لبرد، ومطر، وثلج، وعواصف، وحرمان من نوم الصباح، وتوبيخ من أهله حتى يلتقيني في وقت مبكر كهذا.

مضينا معاً صوب الحقل والألم يعتصرني مع كل خطوة أخطوها، عندما بلغنا الحقل، جلسنا على الحشيش وهو يخبرني بأنني اليوم أبدو على غير عادتي، ثم قال وهو يحدّق بي ملياً: سيمكو .. قل لي ما بك، لاتخفِ عني شيئاً يا حبيبي.

بدأتُ أتحاشى النظر في حدقتُي عينيه، وأنا أصغي إليه حتى لاح لنا من بعيد طيف عمّي، في تلك اللحظة سرتْ قشعريرةٌ في عروقي أحسستُ معها بأن ناقوساً قُرع في أعماقي وأنا أوَدّع راوند بالقبلات والدموع، وهو يمضي وبين لحظة وأخرى يلتفتُ ملوّحاً بيده لي.

لبثتُ على لظى الترقب أرمق ارتفاع كتلة الشمس إلى خاصرة السماء حتى بلغتني خطوات عمّي، عندئذ سعيتُ إلى مواراة أي علامة للإرباك الذي أدور في مداره، وقد غدوتُ في أهبة الاستعداد لمدّ خطوة المجد الأولى في درب تنفيذ ما نال حقه من اختمار، وبلغ بي شعرة الاستواء، ثم رأيتني أهمهم في قرارة نفسي: لابدّ وأنا مقبل على رحلتي الطويلة في قلب المجهول أن أتناول طعاماً دسماً، يكون لي عوناً على تحمّل ما يواجهني من مشاق الطريق، ثم يكون الطعام الأخير الذي أودّع به هذا البيت الذي ترعرعتْ سنوات عمري بين جدرانه.

طلب عمّي أن أتجه إلى قطعة الأرض المزروعة بالخضار والفاكهة، في حين مضى شطر القطعة الأخرى.
وقفتُ بجانب شجرة القيقب الكردي دون أن تعتريني أي رغبة في العمل رغم أنني حملتُ الرفش كي أجري بعض التسويات حول الأشجار.
بعد قليل من الوقوف، رأيتني أجلس بمحاذاة الشجرة أنظر إلى الشمس تبسط أشعتها على الأرض، وأشرد بفكرة تجعلني أخرج من الحقل؛ عندذاك تناهى إلى سمعي دبيب شديد وقع على إثره نظري على ثعبان ضخم يتقدم بسرعة نحوي، لاأعرف كيف تأهبتُ واقفاُ وأنا أحمل الرفش، وفي لحظة

خاطفة تمكنتُ من وضع مقدمة الرفش على رأسه، وبتُّ أضغط بكلتا يدَي، لكن الثعبان أخذ يفحُّ فحيحاً قوياً، ويبدي مقاومة عنيفة حتى يسحب رأسه من تحت حديدة الرفش، وبعد لحظات رأيته يلف حبل طوله على العصا حتى بلغ يدَي وأخذ يلفهما بطوله ويضغط بشدّة شعرتُ معها بأن قوتي بدأت تخور، ومن جهة أخرى امتلأتُ رعباً وأنا أنظر إلى حجمه الكبير، و سمعي سلتقط فحيحه الحاد.

لم يبق أمامي سوى أن أستمر بالضغط على رأسه، لأنه تمكّن مني مثلما تمكنتُ منه، ولم يعد بمقدوري الهرب، كما لم يعد بمقدوره ذلك، وكلما أضغط عليه، يزيد من ضغطه على يدَي القابضتين على الرفش بحزم. في تلك اللحظات الرهيبة تخيلتُ بأنه على وشك أن يسحب رأسه، فيكون قد تمكّن مني بشكل جيد، حينها تسرّب إلى نفسي هاجس بأن هذا الثعبان سوف يسلبني حياتي في وقتٍ تطلعتُ فيه إلى مرحلة مفصلية جديدة من هذه الحياة، ولو كان قد حدث ذلك قبل أن أشرف على هذه الانطلاقة الجديدة، لربما كان الأمر سياناً، لكن الآن عليّ أن أدافع بكل ما أوتيتُ من قوة حتى أمنع هذا الثعبان يودي بي إلى هوة ذاك المصير القاتم.

لحظتذاك بدأتُ أدنو بجزمتي البلاستيكية الضخمة التي أنتعلها حتى استويتُ بقدمي على صفحة مقدمة الرفش، وأخذتُ أضغط حتى خُيّل لي أن الثعبان فقد الحراك؛ حينها وكمن خرج للتو من قعر جب، تركتُ عصا الرفش، وصرتُ أنظر بأنفاس متدافعة إلى الثعبان يحرّك ذيله، وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، ثم هرعتُ إلى عمّي الذي رأيته منهمكاً بمعوله وسط سنابل الحنطة التي ترتفع إلى منتصف طوله.

قبل أن أصله، وقفتُ أستردّ أنفاسي المتقطعة، عندذاك تناهى إلى سمعي صوته وهو يدندن بأغنية.

تقدّمتُ إليه من الخلف حتى استويتُ خلفه، ثم انبعث مني نداء: عمّي.

أجفله صوتي وهو يستدير بلفتة سريعة، وقد جمدتْ الدندنة على لسانه، وطفق يتمتم: بسم الله الرحمن الرحيم.

بعد لحظات تناول شربة ماء من المطّارة، ثم استند بيده إلى عصا المعول قائلاً وهو يرفع نظره إلي: ما الذي أتى بك يا أحمق؟!

قلت: أشعر بغثيان ودوّار، وأحتاج إلى راحة في البيت قبل أن تشتدّ علي الأعراض.

قال: هل أكلت نباتاً من الحقل يا سيمكو؟

قلت: لا.

لحظتئذ رمى المعول أرضاً، وتقدّم إلي برأفة حتى استوى رأسي على صدره، ثم ما لبث أن وضع ظاهر كفه على جبهتي يجس بها حرارتي، فبث ذلك إشارة لي بأن حيلتي سرت عليه.

بعد قليل من الصمت وهو يحدّق إلي خرجتْ من فيه تلك الكلمات التي انشرح صدري بسماعها حينما قال: اذهب، وخذ قسطاً من الراحة في البيت يا سيمكو.

ثم أضاف قائلاً: لاتنس أن تتناول ملعقة من زيت الخروَع، لعلها تفيدك.

في تلك اللحظات غمرني شعور بأنه قد نبت لي جناحان، فأوليته ظهري، ومددتُ خطواتي في الطريق الذي بدا لي أنني أسلكه وأتعرف على معالمه لأول وهلة، إذ لم يسبق لي أن أدركتُ هذه المشاعر وأنا أمضي فيه جيئة وذهوباً طوال السنوات المنصرمة.

بدأتْ خطواتي الواثقة تشق قصبته بنشوة أنني أطير بجناحين، لاأمشي على قدمين، وخال لي أن طبيعة كردستان برمتها تشاركني حبوري، وتبارك لي ما عزمتُ القدوم عليه.

عندما لمحتني زوجة عمّي قادماً في الطريق، ألفيتها تهبُّ مهرولة يسبقها صوتها المذعور إلي: لماذا عدت يا سيمكو .. أين عمّك يا نذيرالشؤم؟!
حين دنت مني، بدأتُ أرى علامات الهلع التي طفحت على محياها وهي ترتجف، فقلت وأنا أحاول أن أهدّئ من روعها: مهلاً يا عمّة هه تاو، عمّي بخير، بل أرسلني لأزفّ إليك بشارة.
بهتتْ وهي تجمد في أرضها قبالتي توزع علي نظراتها وحروف الكلمة تترنم على لسانها باستغراب: بـ بـ شـ شـ اررة !
هززتُ رأسي قائلاً بثقة: أي نعم بشارة.

عندها بدأت تعتذر مني بشيء من الخجل وهي تطبطب على كتفي متمتمة: سيمكو، يا بني، لاتؤاخذني، خفتُ على عمّك لأن لا أحد لي غيره في رحابة هذه الدنيا، وأنت بمثابة ابننا لأننا لاننجب أطفالاً.

في تلك اللحظات ورغم قناعتي بأنها لن تجيب على سؤالي ولن تشفي غليلي، كررتُ عليها ذات السؤال ربما للمرة الألف: لكن أين هو أبي يا عمّة هه تاو؟

صمتت قليلاً ثم قالت وقد ارتسمت علامات الحيرة على خدّيها: ألم يقل لك عمّك بأنك ستعرف كل شيء في الوقت الذي يراه مناسباً .. ثم أردفت تقول وعلامات الوجوم ترتسم على سحنتها: لقد نبّه علي ألاّ أخبرك دونه، هل تريدني أن أخرج عن طاعته.

ثم اصطنعتْ بسمةً وتمتمت: هه يا شقي .. قل لي ما هي بشارة عمّك إلي ؟

قلت: أرسلني عمّي كي أخبرك أنه شاهد الليلة الفائتة حلماً جميلاً يتوسم أن يكون فأل خير، وبهذه المناسبة طلب مني أن أعود مبكراً لأذبح خروفاً وأعينك في طبخه ريثما يعود.

تنفّستْ الصعداء، وتلألأ ثغرها ببسمة طفيفة، ثم قادتني صوب باب الزريبة وهي تلطم بثقل كفها على كتفي مهمهمة: جزاك الله خيراً يا سيمكو .. نشّفتَ ريقي برجوعك المفاجئ.

ثم طلبت مني أن ألج الزريبة، أنتقي خروفاً كَيّساً وأجرّه إلى فناء الدار، ريثما تُحضر السكّين.

وزّعتُ نظراتي على الخراف واحداً واحداً حتى استقررتُ على خروف ملأ عيني وأدركتُ بأنه المراد.

تقدّمتُ إليه وأنا أقول: تعال يا سبع، ستكون لي خير معين على تحمّل مشقة الرحلة الطويلة.

بدأ الخروف يصدر مأمأة متلاحقة ويتهرّب بعيداً عنّي، وصرتُ أطارده بين فزع الخراف حتى تمكنتُ من الإمساك بقرنَيه، وأخذتُ أسحبه بقوة وهو يتلكأ ويمتنع، ويُثبّت قوائمه في أرض الزريبة حتى أوصلته جرّاً إلى الفناء، لأرى زوجة عمّي واقفة بيدها السكّين وقد همهمتْ وهي تصوّب نظرها إليه:
خروف مكتنز، أحسنتَ الاختيار ياسيمكو.
أرديتُ الخروف أرضاً وسط مقاومة شديدة منه، وتدافع مأمأته المتعالية، ناولتني زوجة عمّي السكّين، ثم أمسكتْ بقوائمه حتى تمكّنتُ من إنهاء المهمة.

تعاونّا معاً في سلخ الخروف، وتقطيعه إلى شرائح، ثم وضعناه في قِدر، وأوقدنا القش تحته.
عندها تركتني بجانب القدر كي أتابع الطهي، وراحت تحمل إناء العجين على رأسها متجهة إلى التنور، وهي توصيني أن أزيد الموقد قشاً كلما خفتت النار.

عند ساعة العصر، غدا الطعام جاهزاً بانتظار عودة عمّي، إذذاك راحت العمّة هه تاو تجلس على تلك الحجرة الملساء التي اعتادت الجلوس عليها بجانب حائط البيت عندما يحين موعد رجوعنا، وهي تمدّ نظراتها إلى كبد الطريق بانتظار أن يلوح لها طيفُ زوجها من بعيد، فرأيتها فرصة سانحة كي أختلي بالقِدر.

انسحبتُ خلسة، سحبتُ رغيفين ساخنين من خرج الخبز، ثم يمّمتُ وجهي شطر القِدر، ملأتُ قصعة بأشهى شرائح اللحم مع المرق، ثم جلبتُ فحلاً من البصل مع بعض أوراق الخس التي كانت قد غسلتها جيداً، وشرعتُ أتناول بشهية مفتوحة وأنا أغمس الخبز في المرق الذي تتبخّر منه الحرارة المفعمة برائحة البهار.

حين مضغتُ لقمة الشبع الأخيرة، وثبتُ واقفاً على قدمَي، تقدّمتُ من عمتي الجالسة في ذات المكان مثبّتة نظراتها في الطريق.
مددتُ خطواتي حتى غدوتُ على مقربة منها فاندفع صوتي إليها: عندما يأتي عمّي، قولي له: هنيئاً مريئاً المقلب الذي تلقيته.

هبّت مجفلة وهي تلتفت وتغرز نظراتها الحادّة فيّ، وقد تبدّلت سحنتها، فلوّحتُ لها بكف الوداع وأنا أستدير مهرولاً صوب فسحة الأرض المؤدية إلى الجبل يلاحقني صوتها المحتقن: أين ستذهب يا سيامند .. عد يا شقي.

كانت خطوات الحرية الأولى التي أخطوها في حياتي، وأنا أتذوّق مع فسحة كل خطوة حلاوة كسر القيد، وأستنشق شهقة حريتي التي غدتْ لأول مرة طوع أمري.
وضعتُ الجبل نصب هدفي مهرولاً بتلقائية إلى رحاب صعيده، وكل خطوة تزيدني شعوراً بأنني أحطم حلقة من حلقات قيدي.

عندما بدأتُ ألمح سحب الظلام تأخذ امتدادها في الأفق، تسرّب إلي وجل، وقد بدا الجبل أمام ناظرَي بعيداً، حينذاك أخذتْ أدراجي تتمهّل بجسدي المنهك، وأنفاسي تتدافع سرعة، كما لو أنني شبح وسط حلول الظلام وانتشارأصوات حيوانات ضارية، حتى توقفتُ أستردّ أنفاسي، وأستجمع قواي، ثم ما لبثتُ أن انطلقتُ بهمة متجدّدة نحو هدفي المنشود وأصوات

الحيوانات تخترق سمعي، وقد وضعتُ كفي على قلبي معتقداً بأنه على وشك الخروج من صدري من كثر دفقات خفقاته الشديدة.

مضى هنوٌ من الليل وخطواتي تتسارع بي دون توقف حتى رأيتني مرتمياً أسفل الجبل، حينها استوطنني إحساس بسكينة بلوغ برّ الأمان.
استلقيت على ظهري حتى استردتُ هدوء أنفاسي، وعاد قلبي إلى طبيعة خفقاته، وامتدتْ الراحة إلى مفاصلي، عندئذ نهضتُ، فقادتني أدراجي حتى عثرتُ على موضع أمضيتُ فيه ليلتي.

توقف عن الحديث، ثم بدأ يمدّ نظراته إلى الأمام، وقال إثر تنهيدة عميقة:
في الصباح الباكر، نهضتُ على الفور، ورحتُ أجوب ارتفاعات الجبل حتى عثرتُ على مغارة اتخذتها مأوى لي.
بدأ في حالة إنصات وهو يصغي إلى سيامند يخبره بخفايا لم تروها شفاه الرواة، وكله قلق أن يتوقف عن استكمال حديثه ليمضي مع حبيبته في أي لحظة، وهو يوزّع نظراته بين سيامند الذي يتحدّث بعذوبة تشوبها ابتسامة، وبين خجي التي تبتسم تارة، وتدمع عيناها تارة، وهي تشاركه متعة الإصغاء حتى بلغ يقيناً أن ما يرويه، تسمعه خجي لأول مرة، وما ترويه

خجي، يسمعه سيامند لأول مرة، ولم يسبق لأحدهما أن أخبر الثاني بما جرى معه.

أردف سيامند برهافة نبراته: لم أكن أعلم أن كل هذه الوقائع سوف تتحوّل ذات يوم إلى مجرّد ذكريات عابقة بالنسبة لي، وبالنسبة لأميرة حبي، وأنني سأتولى روايتها بكل هذا الشجن كما لو أن قلبي يعزف على أوتار نشيد الحب الذي جمعنا.
استطاعت هذه المرأة التي تفوق العذوبة عذوبة أن تغيّر مجرى حياتي كلها، تشبك شرايين قلبها بشرايين قلبي لنمضي معاً بهدي خفقات قلبينا دون أن ندري أين يحط بنا الرحال، ودون أن يعنينا ذلك كثيراً بقدرما يعنينا أن نكون معاً.

مضينا دون أن يعترينا أي شعور بأننا نضع مع خطواتنا لبِنات تحوّلنا إلى جزء من ذاكرة أمتنا التي ننتمي إليها، وأن اسمي، واسمها سيتحوّلان إلى رمز لصفاء النجيع،
وسوف يُقبل الكرد إلى تسمية أسماء أبنائهم وبناتهم باسمَينا،
ثم أننا نرانا بين رفة جفن وصنوّتها في حنايا خلابة هذا المكان،

وقد سُخّرت هذه الفراشة الوديعة لتنقلنا من رحيق زهرة إلى عبق أختها، تجوب بنا حيث نشاء، أو تتركنا نمضي على ضفاف الأنهار.

كل شيء كان تلقائياً بالنسبة لي، فبعد يومين من مكوثي في الجبل، رأيتني أتعرّض لبعض الذين مرّوا بالقرب من مأواي، وأسبب لهم إزعاجات دون أن أخفي عنهم شخصيتي، وأنا أتخيّل بأنهم سوف يتجهون على الفور إلى عمّي ويُصعّدون معه لهجاتهم وكأنني أسمعهم يقولون له: إن لم تردع ابن أخيك ذاك يا سامان لن يحصل طيب بيننا وبينك.

بدأتُ أداوم على هذه الإزعاجات وأحياناً تبلغني أصواتهم المرتفعة بأن بعض أهالي القرية، وبعض الزائرين إليها هجموا على عمّي، ونشبت بينهم شجارات حادّة بلغت حدّ كسر الرؤوس والأطراف، حتى أن زوجة عمّي لم تسلم، حيث نشبتْ شجارات حادّة بينها وبين نسوة من القرية؛ كان هؤلاء يطلبون من عمّي بلهجاتهم الشديدة وعباراتهم الموبخة أن يتدخّل ليمنع ابن أخيه عن القيام بهذه الاعتداءات السافرة بحق المارّة.
لم يكن ذلك ليردعني عمّا أقوم به، بل كنتُ أبدي هذه التصرفات كما لو أنني أستأنس بممارسة هواية، وأنا أقهقه ملء شدقَي بضحك مجلجل عميق

متخيلاً أنهم سيتجهون إلى عمّي بمزيد من التهديد والوعيد، ثم أتخيّله يكيل لي الشتيمة تلو الأخرى.

ذات ظهيرة تراءى أمام ناظرَي طيفُ شخصٍ يدنو على حصان إلى الجبل من بعيد ، لبثتُ أرقبه حتى بات على مشارف الجبل، عندئذ ، نطّ عن صهوة الحصان إلى الأرض، فتبدّت لي ضخامة رجل في مقتبل العمر، عندئذ لم يرق لي أن أبقى متوارياً في مخبأي، وأنا أصوّب نظري إلى الرجل الذي ما لبث أن أطلق صرخة: إن كنتَ رجلاً يا سيمكو، اظهر الآن لمواجهة الرجال، هاأنذا قد جئتُ لمبارزتك.

فار الدم في تنّور رأسي، ورأيتني أقفز من أعلى صخرة لأستوي على مقربة منه، وما إن وقعتْ نظراته التي تطفح شررا عليّ حتى ألفيته يمدّ خطوات واثقة نحوي، وعندما بلغ على مقربة خطوتين مني، توقفتْ به قدماه، وبات يصوّب إلي نظرات أكثر حدّة، ثم انطلق منه صوت شراري وهو يشير إليّ بسبابته: إنه أنت إذن، الشرير الذي أفزع الناس هنا ؟!

لفت نظري الحبل الذي يحمله بيده، خال لي أنه سيواجهني به، فلبثتُ منتصباً في أرضي، ثم شرعتُ ذراعي بغتة وقلت : لقد أصبت عين الهدف يا بطل، هلّم إلي أحضنك .
قذف الحبل جانباً وصرخ بصوت كما لو أنه قدح ناراً: وتجيد الهزل كذلك يا فسكل ، سأريك مع مَن وقعت يا سيئ الطالع.

ثم في رفة جفن أشهر خنجراً، وبكل ما ملك من خفة رأيته متجهاً إلي، لكنني استطعتُ أن أتجنّب طعنة متجهة إلى كتفي في لحظة أخيرة.
دام بيننا عراك دموي شرس دون أن يسلم أحدنا للآخر، وفي لحظات الإنهاك التي استبدّت بكلينا، استطعتُ أن أسدّد حجرة إلى رأسه ليقع على الأرض مستسلماً والدم ينزّ من أعلى جبهته.
قبضتُ على الخنجر قائلاً: لاأريد أن ألوّث يدي بالقتل وأنا في مبتدأ حياتي، لكن سأتركك هنا لمصيرك المجهول يا غشة.
ثم قذفتُ خنجره صوب كتلة الحبل.
في تلك اللحظات الحاسمة، وجّه إلى حدقتَي عينَي نظرات انهزامية، وطلب مني بنبرات توسلية كي أمهله حتى يروي على مسمعي الغاية من حضوره إلى هنا.

لم يكن يعنيني بشيء ماسيقوله مهما كان ذلك، لكنني توقعتُ بأن الحيوانات ستنهشه في الليل، ولم أرغب أن أترك تلك الأمنية غصة في قلبه.

رفعتُ كفي بعزم لأصفع بها خدّه، بيد أنني تجنّبتُ ذلك عندما ران من أعماقي هتاف: بأي قلب غلف يا سيامند تعتدي بالضرب على أسيرمضرّج بالدم مستسلم بين يدَيك.

فوجهتُ الصفعة تلك بذات القوة على صخرة بالقرب مني، ثم قلتُ: لا أريد أن ترهق نفسك بحديث لايهمني بشيء.

ثم استدرتُ صاعداً كتف جبلي لتلحقني نبراته المنكسرة: لي رجاء أخير عندك يا سيامند قبل أن تتركني لمصيري المحتوم فريسة لذئاب الليل وأنا لا أقوى على العودة إلى القرية، ولا على ركوب الحصان.

تسمّرتْ بي خطواتي عندذاك، ثم استدرتُ إليه، فقال وهو يوجه أنظاره إلى السماء: الحب هو الذي جلبني إلى خوض هذه المغامرة يا سيامند.

ثم انهمرتْ دموع غزيرة من عينيَه، وغدا البكاء المتقطع يغلب صوته وهو يقول: حبي لخطيبتي، ابنة قريتك هو الذي آل بي إلى ما أنا فيه الآن.

هززتُ رأسي متمتماً بأسى : الحب .. ثم تخيلتُ في لحظات فتاة جميلة تنتصب أمام ناظرَي في خلوة هذا الجبل، تنشب بيني وبينها علاقة حب مثيرة .. استغرق بي الخيال وأنا أجوب بفتاتي بين ردهات الجبال، أغنّي لها أغنيات الوجد .. حينئذ قطع الرجل استغراقي في الشرود: أجل يا سيامند، الحب لعلّك لم تجرّبه.

قلت بشيء من الفضول الذي تسرّب إلي: كيف ؟
حينها قال بصوته المتداخل مع بكائه المتدفق: اسمي جليزاده، قدمتُ من قرية سليفا.
توقعتُ حينذاك أنه من سكان القرية الذين لم يسبق لي أن التقيتُ بهم، لكنه أضاف قائلاً : في الشهر الماضي حضرتُ مع أهلي من قريتي، وخطبتُ فتاة من قريتكم، اليوم جئتُ بمفردي لنحدّد موعد عرسنا، وفي أثناء تبادل الحديث بيننا، ورد ذكرك، وكل ما تقوم به بحق الذين يمرّون بالقرب من هذا الجبل، عندها يا سيامند خطرتْ لي فكرة القيام بهذه المغامرة كي أثبت لخطيبتي أولاً، ثم لأهلها، ولجميع سكّان قرية سليفا مدى شجاعتي، وأنني دون غيري استطعتُ أن أوقف ذاك المارد عند حدّه.

قلت وأنا أنظر إليه: كيف يجتمع الحب مع القتل، وقد أقدمتَ على قتلي بخنجرك ذاك؟!

قال: لم أكن ناوياً قتلك، وشاهدي على ذلك أنني جلبتُ معي ذاك الحبل كي أربطك به، وألفّه حول عنقك، وأقودك خلفي ذليلاً إلى القرية، لكنني عندما رأيتُ نظراتك وأنت تقف بشجاعة قبالتي، توجستُ منك خيفة، وتسرّب إلي يقينٌ بأنني لا أستطيع أن أصارعك بيدَي كما تكهّنتُ، لذلك خطر لي أن أسدّد طعنة إليك بالخنجر حتى تستسلم، ثم أقودك بالحبل إلى أهالي القرية الذين ينتظرونني في البيادر الآن على جمر.

قلت لأهل خطيبتي بحضورها: أنا الذي أضع لهذا الرعديد حدّاً.

ثم طلبتُ إليهم أن يُحضروا إلي حبلاً كي أوثقك به، وأجلبك مُهاناً خلف حصاني الذي أقوده بزهو المنتصر حتى يشفي كلُ واحدٍ بك غليله.

بعد قليل تسرّب الخبر إلى أهالي القرية بمن فيهم عمّك الذي قال بحضور الأهالي بأنه يدين كل ما قمت به من تطاول على المارّة، وقال بأنه من المنتظرين كي آتي بك، وتعهّد بأنه سوف يقوم بربطك، ثم يملأ وجهك بشحّار القِدر، ويُركبك على حمار أجرب بالمقلوب، ويدعو كل أهالي القرية ليشهدوا واقعة إهانتك هذه جزاء لما اقترفته من تجاوز بحق الناس وأنت

تتخفى في وكرك، وعندما يحلّ المغرب، يوثقك برسن لمدة عشرة أيام في الزريبة، يأتي إليك كل مَن تسببتَ بإلحاق الأذى به، فتقبّل يدَيه، وتعتذر منه ملء فمك.

قلتُ بصوت مسموع لأهالي القرية بأنني سأنطلق إليك على جوادي، وعليهم أن يكونوا مهَيئين لتتكحّل عيونهم برؤيتك تتبعني والحبل في يديك وخطواتك تتهرول بك خلف الجواد.
عندما انطلقتْ بي خطواتي الأولى إليك، أخذت زغاريد نسوة القرية تتعالى ممتزجة بصفير بعض الصبية، وما توانت أن انهالت عبارات التشجيع متداخلة بالتصفيق، معبرين بأنهم لن يبرحوا البيادر حتى يفرحوا برؤيتك مذلولاً، فلوّحتُ لهم بيدي وخطواتي تدب بشجاعة وهي تشق الطريق إليك، وكل ما يختلج نفسي هو أنني أعود بك منقاداً بهذا الحبل رئاء الجميع ، وأنت تنصبني بطلاً في تاريخ قرية سليفا.

كان يتحدّث بحرقة والحسرة ترسم معالمها على سمات وجهه، وتطفح في ثنايا نبرات صوته المنكسرة، وكنتُ أتلذذ بسماع عمّا أمكنني إثارته في القرية، وما كان يهمني بالدرجة الأولى هو أن تصل رسالتي هذه إلى

عمّي، فيدرك بأنني أصبحتُ رجلاً، ولم أعد صغيراً سوى في عينيه فحسب.

قال وقد خفت به صوته: لكنك على العكس من ذلك، تسببت لي بأكبر نكسة في حياتي، وحطّمت مستقبلي، ولا أعتقد بأن أهالي القرية الذين هم الآن على أهبة الاستعداد لملاقاتك، سوى أنهم سيفعلون بي نكالاً ما خططوه لك في حال فلاحي بالوصول إلى القرية، لأنني خيّبتُ أملهم، وعدتُ إليهم أستجرّ خطاي مهزوماً، وهذا سيجعلك أكثر تمادياً عليهم حتى تعبّرعن مدى انتقامك منهم ردّاً على ما دسوه لك.
علاوة على كل ذلك يا سيامند، فإن أهل خطيبتي أول ما يفعلوه، هو أن يفسخوا الخطبة كي يعبروا لأهالي القرية عن تبرئتهم مني.

ليتني ما انقدتُ خلف أهوائي، وما تتبعتُ طيش نفسي حتى أعمهني، لكن هيهات أن ينفع الندم، لقد وقع الفأس بالرأس، إنه الحب يا سيامند، الحب الذي أشعل شرارة كل ذلك.
ثم أخفى وجهه براحتي كفيه، وقد أخفض رأسه بكآبة تاركاً نشيجه يتعالى نادباً حظه على نهايته المأساوية التي مُني بها.

عندئذ وأنا أرنو إلى حجم المأساة التي بدتْ أمامي، رق قلبي لحاله، وأخذ يعتريني حوب كبير تجاهه، فخطرت لي فكرة القيام بتمثيلية أستطيع من خلالها أن أخفف عن هذا الشخص الذي وضعني إزاء جسامة مسؤولية كل ما سيُمنى به من عواقب وخيمة .
تخيّلتُ نظرات خطيبته المفجوعة إليه، وقد سوّمها بنكسة، ثم نظرات أهلها الخائبة، نظرات سكان القرية المزدرية إليها جراء ما مُنيتْ به نتيجة ارتباطها بهذا العريس الذي سفِه نفسه، وادّعى الشجاعة، فأظهرالواقع نقيضها جهرة.

دنوتُ إليه وقلتُ بصوت مرتفع: جليزاده .. ارفع رأسك يا ولد ، وانهض إلى ذاك النبع لتغتسل جيداً.
رفع رأسه قليلاً، وبدرت منه حركات أدركتُ معها أنه يعجز عن القيام، مددتُ يدي إليه واغترفته حتى أقعدته على صفوان بمحاذاة النبع، ثم عدتُ أمسح ما سببه عراكنا من قيح في سائر بدني.

بدأتُ أرقبه وهو يغتسل، ويستعيد بعض حركاته دون أن يتفوّه بكلمة واحدة، عندما تخلّص من بقع الدم، وقف على قدميه مولياً وجهه إلي حتى انتصب بقامته الفارعة قبالتي.
تقدمتُ إليه، ثم مددتُ كفي وقرصتُ أذنه قائلاً: سوف أحقق لك حلمك، ليس لأجلك، لكن كرمى لعينَي ابنة قريتي، حتى أقيها تبعات إصابتها بخيبة أملها بك.

ظهرت مسحة حيوية على وجهه، وانبعث منه صوت فرح: ماذا أنت فاعل ياسيامند؟!

- : الآن أهالي قرية سليفا يترقبون كي تجرجرني خلف حصانك وتقودني إليهم
- : بلى
- : سيحدث هذا، وسترى خطيبتك ذاك المشهد المرتقب وهي تتباهى بك وسط جميع أهالي القرية.
- : حدود قوتي معك خبرتها يا سيامند، ولا قدرة لدي حتى نعاود المصارعة كرة أخرى!

- : بل سيحدث هذا دون مصارعة يا جليزاده، سنقوم بتمثيلة تنقذك من عواقب مصيرك الوخيم، وتتيح لك إقامة عرس جيد مع خطيبتك، وفي الوقت عينه، أكون في مأواي دون أن تطالني يد أحد منهم.
- : كيف سيحدث ذلك؟!
- : إن كنت مستعداً لعقد معاهدة معي ستتكلل تمثيليتنا بالنجاح
- : أعاهدك يا سيامند على ما تراه.

عندذاك طلبتُ منه أن يحمل ذاك الحبل، فهرع حاملاً إياه، ثم أركبته خلفي على حصانه ومضينا في الطريق النافذ إلى القرية.

عندما شارفنا على الظهور للعيان، توقفنا، وقلت له: الآن يا جليزاده، سوف تربط يدَي، ثم تضع الحبل في رقبتي، وتقودني خلفك وأنت تقود الحصان، لكن قبل ذلك أريد أن تعاهدني بأنك ستترك الحبل من يدك عندما يهرع إلينا الناس حتى أفرّ هارباً.

قال : أجل يا سيامند أعاهدك على ذلك، وأتذرّع لهم فيما بعد بأنني نسيتُ أمر الحبل وأنا أراهم يهرعون إلي ابتهاجاً.

قلت: إذن لنبدأ تمثيليتنا يا جليزاده.
أعنته في ربط يدي، ثم جعلته يضع حلقة الحبل في رقبتي، وبدأتُ أمضي خلفه وأنا أذكّره بألاّ يخلف عهده معي، فيقول وهو يقود الخيل: وكيف أخلف عهدي معك يا سيامند، هذا دَين لك في رقبتي لن أنساه ما حييت.
كلامه هذا جعلني أطمئن إليه وأتتبعه بخطواتي المترنحة ويدَي المربوطتين، وحلقة الحبل المستقرة في رقبتي.

عندما ظهرنا أمام أعين أهالي القرية، بدأنا نستمع الهتافات تتعالى، واستطعنا أن نرى قامات تهرول صوبنا على إيقاع زغاريد النسوة.
في تلك اللحظات تسرّبت مني نظرة خاطفة إلى رأس الحبل الذي يمسك به جليزاده، وتوقعتُ أنه بين لحظة وأخرى سيرخيه، بيد أنني رأيته وقد أمسك به بشدّة ليس بيد واحدة كما كان، بل بيديه الاثنتين.
ومع شعوري بوخزة من ريب وأنا أنظر بهلع إلى دنو القامات إلينا صرختُ به: هلّم دع رأس ذاك الحبل من يدّيك.

عندذاك التفت موجهاً إلي ضحكة لئيمة، ووجهه يطفح بعلامات المكر دون أن ينبس بحرف واحد وكأن صرختي لم تكن موجهة إليه.

في تلك اللحظات أدركتُ بأنه نكث بعهده معي، فتسمّرتُ في أرضي، وانفجرتْ مني صرخة ملغومة أحسستُ معها أن بركاناً هاج في أعماقي: اترك من يديك ذاك الحبل يا جبان.

لم يكلّف نفسه عناء الاستدارة هذه المرة ولبث ماسكاً الحبل بشدّة وهو يسحبني بكل ما ملك من قوة.

عندما أصبحتْ القامات على مقربة منا، استطعتُ أن أميّز وجه عمّي يقدح شرراً وهو يهرع إلي بغضب حاملاً بيمينه السوط، وفي ذروة اشتعال تلك النار التي التهبت في أعماقي، رأيتني بحركة خاطفة أهجم عليه، ومع استدارته إلي في أثناء ذلك، سدّدتُ لكمة بكلتا يدّي الموثقتين بكل ما أوتيتُ من قوة، ليتردى من صهوة الجواد على ظهره مغشياً، وألوذ بالفرار في أقصى سرعة تلاحقني قامات على وشك الإمساك بي، وأنا افكك عن يدَي الحبل، وأنزعه من عنقي، أدركتُ حينها أن أحد الأشخاص بدا على مقربة مني، فاستدرتُ إليه وبدأتُ أقاومه بالحبل، تقدّم إذذاك شخصان آخران، وبعد شيء من العراك استطعتُ أن أنجو، ليلحقني هذه المرة عمّي حاملاً سوطه الذي طالما سوطني به، وترك آثاراً على جسدي، وهو يزعق بي بصوت محتقن: قف يا سيامند، لاتكن عنيداً.

قلتُ مستديراً إليه:عد إلى امرأتك، لاشأن لك بي.

لكنه لبث جارياً خلفي وأنا أتحسس المسافة التي أخذت تتباعد بيني وبينه حتى تناهى إلى سمعي صراخ صدر منه، فالتفتتُ إليه، رأيته ممدّداً على الأرض يبدي بعض الحراك بالكاد.
ذاك المنظر منعني من مدّ خطوة واحدة باتجاه الجبل، وقد أدركتُ بأنه ارتطم بحفرة ما، وتهاوى على الأرض وهو بكل تلك السرعة في الجري.

بدا لي أن الليل بات على وشك أن يرخي سدوله على المكان، وتخيّلتُ عمّي وهو يمسي عرضة لحيوانات الليل الشرسة، تخيلتُ زوجته وهي تصوّب إلي نظرات ازدراء وقد تخليتُ عن عمّي الجريح الذي رباني.

في تلك اللحظات، ولأول مرة بدأتْ صورة أبي الذي لم أره من قبل تتداعى أمام ناظرَي من خلال تجاعيد وجه عمّي، راودني إحساس عميق بأن ذاك الذي ارتمى هناك، إنما هو أبي وليس عمّي.
فاضتْ عيناي بدموع غزار، ورأيتني أعود إلى نجدته، عندما بلغته، رأيته يئن والدم ينزّ من جبهته.

خلعتُ سترتي وصرتُ أخفف عنه مع تسرّب خيوط الظلام إلينا، خرتُ على يدَيه بالقبلات وأنا أعتذر منه على ما بدر مني، وما تسببتُ له من مصائب.

غمرني لأول مرة بفيض مشاعر الأبوة وأخذ يتمتم وهو يضمّني إلى حضنه: الآن يا سيامند ثبت لي بأنك صرتَ رجلاً يمكن لك أن تتحمّل مسؤولية نفسك.

لفني صمتُ مهيب وقد فرش الظلام حلكته علينا، فأردف: الآن يا سيامند سأخبرك بما أخفيته عنك طوال كل تلك السنوات.

ثم تنهّد بعمق وقال: وقع ذلك منذ ربع قرن مضى من الزمن، عندما مات أبوك

(شمزين) الذي يكبرني بسنتين، وكان قد تزوّج منذ ستة شهور فقط.

رفع كفه يمسح بها دموعاً بدأت تسيل من عينيه وقال: كان رجلاً رقيق القلب، مرهف الإحساس، سخي اليد، كثير التسامح.

كنتَ جنيناً في بطن أمك التي اضطرتْ للذهاب إلى بيت أهلها، لم يكن لي في هذا العالم كله غيره، فبقيتُ لوحدي، لذلك رأيتُ أن أتزوّج لعلي أحظى بذرية تملأ علي الحياة، ثم أتمكن من جلبك لتعيش مع أبناء عمّك.

سارعتُ في الزواج بعد سنة من موته، وانتظرتُ سنتين دون أن يهبنا الله أبناء، حينها علمتُ أن بي ما يمنع الإنجاب، وغدتْ الأبوة بالنسبة لي حلماً بعيد المنال؛ في تلك المرحلة العصيبة، اصطحبتُ (هه تاو)، ولجأنا إلى بيت أهل أمّك، فقيل لنا بأنها تزوجتْ منذ سنة، وارتحلت برفقة زوجها إلى بقاع أخرى من كردستان.

شرحنا لهم أمرنا، ورغبتنا في تربيتك، عندها أرسل أبوها معنا أحد أخوالك، فذهبنا جميعاً إلى تلك القرية التي تقطنها.

شرحنا لها ما وقع معنا، وهي فرصتنا الوحيدة كي نقوم بتربيتك في بيتنا، واستطعنا أن نشمّ رائحة خلاف نشب بينها وبين زوجها بسببك، لأن الرجل لم يكن مستحباً أن يربي ابناً ليس من صلبه، وكانت أمك إذذاك تحمل على يديها طفلاً رضيعاً.

رأيتها تتساهل في ذلك وهي تغمرك بالقبلات، وتوصي (هه تاو) أن تكون لك أماً حنونة، فعاهدتها هه تاو على ذلك قائلة: لاأبناء لنا يا (بهروز)، وسوف يكون سيامند بمثابة ابن لنا.

مع مرور السنوات بدأتَ تأخذ شكله، حتى غدوتَ صورة منه، كنتُ أقول لـ هه تاو: أحياناً أخجل من بعض كلامي معه، لأنه يُشعرني بأنني أقف أمام أخي شمزين، عليه رحمة الله.

والأمر الآخر أن صوتك مع السنوات بدأ يشبه صوته، حتى أنك دوماً تذكرني بصوته عندما تتحدّث.

بدأت تكبر أمام أعيننا، وبدأتَ تتبوأ منزلة الابن بالنسبة لنا، لكنني أطلب منك أن تغفر لي يابني لأنني كنتُ قاسياً بعض الشيء في تربيتي لك، أردتُ يا بني أن أكون شديداً في تربيتك، حتى تنضج شخصيتك، ويقوى عودك، كنتُ أعدّك لتكون قوياً شجاعاً، تتحمل مشاق الحياة، تتولى مسؤولية نفسك برجولة، ذلك هو الأب يا بني، يجنح أحياناً إلى خشونة مع أبنائه وهو يقوم بتربيتهم.

كثيراً ما كنت تسألني عن أبيك شمزين، ودوماً كنتُ أرى بأن الوقت لم يحن بعد كي تعلم عنه ما لم تعلم؛ كنتُ أنتظر أن تكبر وتكون بحجم تحمّل مسؤولية ما تعلم، لأن اطلاعك على ذلك في غير أوانه كان من شأنه أن يتسبب لك بشتات وتيه؛ حتى هه تاو بدأت تحس بأمومتها نحوك لأنها ربتك، كانت دوماً تقول لي: لم يهبنا الله أبناء يا سامان، لكنني مع السنوات

بدأتُ أعيش مشاعر الأمومة تجاه سيامند، حتى إذا زوّجناه، لن ندعه يبرح بيتنا، سنبني له غرفة في الحوش، كي يبقى مع زوجته وأولاده أمام أعيننا.
ثم تبتسم وهي تغالب الدموع: سيقول أبناؤه لي: جدّة هه تاو، ويقولوا لك: جدّو سامان.

يا بني، الآن لا سلطان عليك سوى سلطان مسؤوليتك تجاه قادم أيامك ، لكن لي رجاء يا سيامند أن تهجر ذاك الجبل، إن اتخذت قرار عدم العودة إلينا.
قلت : إنه قراري الذي لا أحيد عنه يا عمّي لو أذنتَ لي، أما بالنسبة للجبل سأكون رهن طاعتك.
بدأ يمسح دموعه ويقول: ستكون وحدك بلا معين يا سيامند، أوصيك بنفسك، وأن تتجنّب ما أمكن رفقة السوء، توجد حكاية كردية تقول بأن رجلاً ذات يوم ابتاع جرة فخار حتى يتمكن من تبريد ماء الشرب فيها صيفاً، لكنه تفاجأ بأن هذه الجرة لاتقوم بتبريد الماء، بل على العكس من ذلك، فإنها تقوم بتسخينه بعد بقائه فيها عدة ساعات.

ظن صاحبنا للوهلة الأولى أن ذلك يقع بشكل مؤقت ريثما تتروّض الجرة، إلاّ أنها لبثت على ما هي عليه من تسخين الماء، عندئذ حمل الجرة على رأسه، وأخذها إلى صخرة قريبة، ثم قذف بها على الصخرة دون تردد وهو ينظر إلى شظاياها قائلاً: إن لم تبرّدي لنا الماء الساخن في هذا الصيف القائض، فلماذا تسخنيه أكثر.

أدركتُ ما رمى إليه، وهززتُ رأسي، فقال : كان جدّك- رحمة الله عليه - دوماً يقول لي:

يا سامان، الحجر الكبير، لايكون استخدامه للضرب.

وفي بعض المواقف يردد: لاالخشب يصلح لذلك، ولا المسمار.

المجنون يقدّم نفسه سواء وضعته في الأفراح، أم في الأتراح.

بقاء الرأس الأجرب تحت الطربوش أفضل.

لم تصطدم العصا بالحجل، بل اصطدم الحجل بالعصا

ويقول:

تطير الدجاجة حتى الزاوية.

الذي تكون عينه على موائد الناس، يبقى جائعاً أبد الدهر.

أربعة بيوت لا تشكل قرية، وأربع شعرات لا تصنع لحية.

بدأتُ أصغي إليه بإنصات، ونبرات صوته تصدر منه بكل هدوء:
أقول لك كلمات يا سيامند، استخلصها أجدادنا الكرد من العيش في هذه الجبال ، تذكّر دوما يا ولدي أن العشب مهما طال به الأمد تحت الأحجار، فإنه سيخرج ذات يوم، وأن الجروح تندمل، لكن تبقى آثارها.

أن تتزحلق برجلك يا سيامند، خير لك أن تزل بلسانك.
أن تكون راعياً للحمير، خير لك أن تكون آغا على الجهلة.
واعلم أن اليد تقوم بغسل اليد قبل أن تغسلا الوجه، وأن الحمار مهما حمّلته بالذهب والفضة، فإنه يبقى يحرّك أذنيه.
ثم قال: مادمتَ عزمتَ على شأنك، فأسأل الله أن يوفقك، وينير لك دربك، لاتظنن يا بني أن ذلك هيّن على قلبي وعلى قلب هه تاو لأننا لو ربينا حيواناً طيلة كل هذه السنوات، لشعرنا بمرارة فراقه، ولترك بفرقته لنا فراغاً، بيد أنك إنسان من لحمي ودمي، وأنت الرائحة الوحيدة المتبقية لي من أخي الوحيد في هذه الدنيا شمزين.
إثرئذ حملته على ظهري، وعدتُ به إلى مشارف القرية، ثم ودّعته وسلكتُ درب العودة إلى مخبأي.

الفصل الثاني

في تلك الليلة المؤرقة لم يدن النوم من جفني، وقعتُ فريسة لحمّى الشرود بكل ما وقع معي في ذاك النهار الحافل بالأحداث كما لو أنها أحداث سنة كاملة اختُزلتْ في يوم.
عندما بزغ الضوء، نهضتُ محمّلاً برغبة جامحة في ترك المكان والابتعاد عن
رائحته.
استبدّ بي شعور بأن بقائي في ذات الموضع بعد الذي جرى، لم يعد يختلف عن بقائي في دار عمّي.
لوّحتُ بكفي لمخبأي وقلت: ممتن لكل ذاك الأنس الذي منحته لي، ثم لوّحتُ للجبل قائلاً: مشكور يا جبلي على كل تلك الرفقة الزكية.

مددتُ خطواتي الأولى نحو قلب المجهول دون أن اقصد جهة بعينها، أمضي بخطواتي في دروب تطأها لأول مرة، أمسح جبالاً بنظراتي أراها لأول مرة في قلب طبيعة صامتة، خالية من حركة البشر.

مشيتُ مسير نهارين ، وبغتة عندما وقع نظري على جبل، رأيته يلفت نظري دون سائر الجبال التي مررتُ بجانبها، بدا الجبل يجذب نظراتي إليه، وأخذ قلبي يخفق نشوة، كما لو أنني عثرتُ على مسكن آمن.

يمّمتُ وجهي شطرالجبل، وعندما بلغته اعتراني إحساس بالانشراح، وأحسستُ برغبة الإقامة في ربوعه، ثم بحثتُ في جنباته حتى عثرتُ على مغارة اتخذتها مأوى لي.

استلقيتُ في مغارتي واستسلمتُ لنوم عميق بعد كل ذاك الجهد المضني الذي بذلته، وعندما استفقتُ في الصباح، دبّت في أوصالي حيوية غريبة، سرتْ لياقة في عروقي صرتُ معها أرقص وأغني، وقلبي يتقافز طرباً.
ياه،،، كم دهمني لأول مرة شعور بعظمة الحياة
انفتحت أمامي أبواب جديدة للحياة، غدوت أمضي أوقاتي في السباحة، وتسلّق الأشجار، وقطف الثمار، واصطياد الغزلان والوعول، وشي اللحم، استطعتُ أن أعقد روح علاقة قويمة مع مقومات الطبيعة، وأصبح جزءاً منها.

بدأتُ أعيش حياتي بطلاقة مفتوحة لم يكن لي عهد بها من قبل، وذات يوم وأنا في ذروة مطاردتي لأرنبة كي أصطادها، تراءى أمام ناظرَي من بعيد جمعٌ من الخيم.

تركتُ الأرنبة، واتجهتُ صوب الخيم، وقبيل وصولي إليها، رأيتُ رجالاً يحملون العصي ويتقدّمون نحوي، عندما بلغوني ورأوني أعزلاً، اقتربوا مني دون أن يشهروا عصيهم، ثم سألوني عمّا أريد ؟ فقلتُ بأنني رأيتُ الخيم مصادفة، ووددتُ أن أقدم إليها.

عندئذ رحبوا بي، وقالوا بأنهم غجر كردستان، ثم أصطحبوني إلى الخيم ليتحلّق الغجر رجالاً ونساءً وأطفالاً حولي وكأنني حللتُ بينهم من كوكب آخر، ويعبّرون عن سعادتهم بحضوري بينهم، ولم يطل الوقت حتى رأيتهم يستعدّون لاقامة احتفال غجري ترحيباً بي.

بدأت الأغنيات وحلقات الدبكة والمعازف على الطبل، والمزمار، والربابة، والطنبور، وسط شواء اللحم، وتوزيع الشراب، وأخذت صبايا الغجر الجميلات تتبارزن لشبك أكفهم بكفي في حلبة الرقص.

بعد ان انتهى الاحتفال، أخذوني إلى خيمة، وقالوا بأنها خيمتي، وأبدوا رغبتهم كي أبقى معهم، ثم قال لي كبيرهم: اعتبر نفسك يا سيامند غجرياً منّا وفينا.

رأيتني في غمار ذلك أنفتح على صفحة جديدة من صفحات الحياة، أتعلق بهذا النمط من العيش.
صرتُ أرافقهم في الذهاب إلى إحياء حفلات الأعراس والختان التي تحدث بين شهر وآخر في قرى قريبة وبعيدة إلينا، حتى تعلمتُ العزف على آلة الطنبور، وبتُ أتناوب معهم في الغناء، فكنا نخرج صباحاً ولا نعود إلا في جوف الليل على خيولنا حاملين معنا الخراف والديكة والسكاكر والنقود.

في دجى الليل غدوتُ أطيل السهر في خيمتي، أعزف بشجن على أوتار الطنبور، وأغدو فريسة لمشاعر حاجتي الشديدة إلى امرأة أهيم بحبها، أنظر إليها نظرات عميقة مستغرقة، فتذيقني حلاوة الحب، أكون معها ولايهمني في العالم كله سواها.

أعزف على أوتار طنبورتي وأدندن وأنا أتخيلها جالسة بجانبي وتستمع إلى نجواي، تلهمني كلمات لم أقلها من قبل، ألحاناً لم تعزفها أوتار طنبورتي من قبل.

عندها فقط أدركتُ مدى أهمية حضور المرأة في حياة الرجل، وأن رجلاً تخلو حياته من المرأة، حاله كحال ربيع يخلو من مروج خضراء.
إنه مهما مارس من حرية، فإن كل تلك المساحة الشاسعة من الحرية التي يمارسها تكون ضئيلة إزاء نفحات الحرية التي يستشعرها، ويتذوّق لذة عسلها ساعة يشبك كفه بكف المرأة التي يحبها كل الحب، ويستكشف أبعاد حرية لم يلمسها من قبل وهو مستغرق بالنظر في جمالية حضورها، ويستأنس بعبير رائحتها إلى جانبه.

اكتشفتُ في خضم ذلك أن الخيمة التي لاتسكنها امرأة، هي خيمة بلا حياة، ثم تخيّلتني أقيم في قصر، فأتلظى بنار عزلتي، ووحشة قصري دون امرأة،،تخيلتني ملكاً على أبناء جلدتي، فأتجرّع علقم التجرّد من مزايا مُلكي لأن ليست ثمة ملِكة تبرك حدّي، إذ لا تتوّج الملك ملكاً على عرشه سوى مَلِكة.

بدأتْ مشاعر الحرمان من المرأة تستبدّ بي وتفسد عليّ صفاء ليلي، فأخرج في سكون الليل لأرى (ليان) الصبية الغجرية الجميلة ساهرة على باب خيمتي في حلكة الظلام الدامس، تلك الصبية الرقيقة التي تعلّق فؤادها بي، وبدأتُ أرى ذبول عودها يوماً إثر يوم، وانا أصدّها عن دربي، وأسعى إلى إقناعها بأن أفظع خديعة يمكن للرجل أن يقدم عليها بحق المرأة عندما يتزوّج امرأة لايسبقه قلبه إليها.

ننتصب معاً أمام باب الخيمة كشبحين وسط حلكة الظلام وأنا أشرح لها جاهداً بأنني لا أملك مشاعر الحب نحوها، ويتعذر علي الاقتران بامرأة لا يخفق قلبي لحبها، ولاتسبقني نظرات حنيني إليها.
تنشج بصوت كسير، وتمضي بكآبة صوب خيمة أهلها.

الفصل الثالث

أدركتُ حينها بأنني في عمر أكثر ما أحتاج فيه إلى حبيبة نؤسس معاً عائلة ولو في كهف جبل، وسوف يكون العيش في ذاك الكهف المهجور أحب وأنعم إلي من العيش في قصر ملكي محفوف بالحرّاس، وسوف أتذوّق لذة الحياة، وأنتشي برغد العيش أكثر من ذاك الملك الأعزل من رائحة المرأة.

كنتُ أبحث عن تلك المرأة التي تُحدث لي زلزالاً في العمق، ترجرج قاع نفسي منذ نظرة أولى إليها، المرأة التي أشمُّ منها رائحة أمي المفقودة، رائحة أختي الافتراضية، المرأة التي تلخص في ناظرَي كل نساء الأرض، وتكون مشكاة العمر في متاهات سفوح كردستان.

ركن للحظات إلى ستارة صمت، ثم التفت ينظر في عينَي خجي، وراح يشبك كفه في كفها مدندناً: وأنا أمضي بعيداً عن الخيم في سكون الليل، ومض في عمقي شعور بأنني أمضي في عالم مبهم مجهول، وأن أميرة أحلامي السحرية تنتظرني في ركن من أركانه، لكن أبداً لم يخطر لي أن هذا اللقاء العاصف بها سيقع في وقت أبعد ما يكون مناسباً له.

كنتُ حينها منهكاً مذعوراً، والدماء تنزّ مني، وأنا أرتمي مغمياً على عتبة دارها.

تناهت نبرات خجي وهي تخاطبه: في سكون تلك الليلة، دبّت حركة في القرية تعالى على إثرها نباح الكلاب.

جفلتُ قاعدة في فراشي، وبدت رجفة تسري بين جوانحي، تعرّض جسدي كله معها إلى موجة برد شديدة، حتى خلتُ ألمس أطرافي التي بدتْ وكأنها قطعاً من صقيع، غدوتُ أرتجف رغم أن الطقس كان حاراً، وأخوتي السبعة ينامون على السطح، في حين أنام مع أبوَي في فناء الدار.

هبط أخوتي إلى الأسفل واحداً تلو الآخر، وبدأنا في حالة استنفار خشية من هجوم قطاع طرق إلينا.

همهم أخي الكبير (هاجان): لابد أن الكلاب تنبح على قدم غريبة دخلت القرية.
ثم حملوا العصي وفتحوا الباب، عندذاك انطلق صوت من أحد أخوتي هاتفاً: يبدو أن رجلاً يئن على عتبة دارنا !

بعد لحظات حملوك برفق، فتهرولتْ بي خطواتي المتلكئة حتى أوقدتُ الفانوس في غرفة، ومددتُ لك فراشاً في أقصى سرعة.
مع استلقائك على الفراش بدأت تُصدر أنيناً خافتاً مع تأوهات متقطعة، عندها أومأ لي أبي كي أضمد جراحك، فسارعت إلى إحضار قماشة بيضاء مع سائل معقّم أحمر اللون.
كان وجهك محتقناً، فشرعتُ على الفور بتضميد جراحك، ثم سقيتك كأس ماء وأخوتي يتحلقون حولي.
حينها أوحت لنا هيأتك بأن صراعاً دامياً قد نشب بينك وبين حيوان مفترس.

أودعناك على الفراش، واتجه كل واحد إلى فراشه، لكنني لبثتُ يقظة ونظراتي متسمّرة في باب غرفتك المشرع، يباغتني إحساس مبهم بأن

شخصاً ما يستلقي هناك على ضوء الفانوس الخافت، شخص لم يسبق لأحد غيره قط أن حرّك في نفسي ذاك الشعور المبهم، شخص واحد دون غيره شممتُ منه رائحة المستقبل وأنا أضمد جراحه.
في تلك اللحظات لاأعرف لماذا راودني إحساس بأنني أتعرف على قلبي لأول مرة، القلب الذي ألفته جيداً لم يعد طوع معرفتي المعهودة به من قبل، أحسستُ في تلك اللحظات الهاربة بأنني أستمع إلى أغنية عذبة، تحوّل سكون الليل إلى موسيقى شجية تصدح في مسمعي.
كل عضو فيَّ بدا منشرحاً، وخلتُ بأن وجهي أمسى وردة منتشية تتفتح على كتف جبل تكسوه الخضرة.

عندما غرق الجميع في النوم، نهضتُ من فرشتي، ثم ربّتُ بأناملي على كتف أمي حتى أيقظتها وطلبتُ منها بهمس أن تأذن لي كي ألقي نظرة إليك، وأرى إن كنتَ تحتاج شيئاً، فأومأتْ رأسها بالإيجاب، ثم عادتْ إلى نومها المستغرق .

خطوتُ خطوات وئيدة صوب حجرتك، وراحت أناملي ترفع قليلاً من شعلة الفانوس، وقفتُ أنظر إلى وجهك ملياً، وبعد لحظات زحفتْ كفي إلى

جبهتك، فتلمستُ حرارة مرتفعة، إذذاك فتحتَ عينيك فسارعتك القول : هل أنت بخير .. ألا تحتاج شيئاً؟

نبست بريق جاف: ماء

رفعتُ رأسك بكف، وبالكف الأخرى وضعتُ كأس الماء في فمك، فجرعتها بشربة واحدة، ثم ملأتها ثانية، وقدّمتها لك حتى شربتها واكتفيت، عندها بللتُ قطعة من القماش، وضعتُ على جبهتك كمّامة، وخرجت.

في الصباح بدوت أفضل حالاً مما كنتَ عليه ليلة البارحة، بعد تناول الطعام، انصرف كلٌ منّا إلى عمله، ولبث أبي بجانبك.

استغرق كل واحد منّا في شأنه حتى ساعة الظهرالضيقة حيث عدنا وتحلّقنا جميعاً حول مائدة الغداء، فأخبرنا أبي إذذاك بأنك قبلتَ أن تصبح فرداً من أسرتنا.

قال ونحن نتناول الطعام: هذا شاب كردي يقول أن اسمه سيامند السليفي، في الليلة الماضية بينما كان عائداً مع فرقة الغجرمن إقامة حفلة طهور، تعرّضوا لهجوم من حيوانات شرسة، فتمكّنت بمن تمكّنت، واستطاع أن

يُقاوم بالخنجر الذي كان في حوزته ذئباً هجم عليه، لبث في كرّ وفرّ معه حتى رأى نفسه على عتبة دارنا.

ثم التفتَ إليك قائلاً: لدي سبعة أولاد ياسيامند، وأنت ثامنهم.
عندئذ وقف أخوتي، ثم وقفتَ، وصرتم تتبادلون القبلات، بعد ذلك رحت تطبع قبلة على ظاهر كف أبي وترفعها إلى جبهتك، وأقدمتَ على الأمر ذاته مع كف أمي.
مضى الأمر دون أن يخطر لأحد منّا بأن ذلك سيضعنا جميعاً في معمعة عقيمة مع خطيبي (خزنَدار) ابن زعيم عشيرتنا.
بعد يومين انتشر خبر وجودك في بيتنا بين سائر أهالي القرية وبدأ الناس يسألوننا عنك، وكيف ندع شاباً غريباً يقيم في بيتنا دون أن نعرف عنه شيئاً، لكن أبي بدأ يقول لهم بأنك بتَ بمثابة أحد أبنائه.
عندما بلغ الخبر خزنَدار، لم يتردد من الحضور إلينا مستاء، وعندما رآك تشاركنا في جلسة سمر، طلب منك أن تغادر بيتنا بعد أن تماثلتَ للشفاء، لكنك لم ترد عليه، فزادك ذلك قدراً بعين أبي الذي تولى الرد قائلاً بأن البيت بيته، وهو الوحيد الذي يقرر بشأنه ما يشاء، فخرج مغتاظاً، وفي صبيحة اليوم التالي جاء مع أبيه الذي طلب من أبي بصيغة أمر أن

يصرفك من بيته لتذهب في حال سبيلك بعد أن قام بواجبه تجاهك، وتماثلتَ للشفاء.
قال له أبي: سيامند أصبح بمثابة أحد أبنائي يا زعيمنا
قال ابنه: إذن في هذه الحال أرى أن نسرع الزواج، ولاننتظر إلى الصيف القادم .
أجابه أبي بحزم: لا مانع لدي يا بني.

ترامى صوت سيامند متجهاً بكلامه إليها: كان ذاك الحديث الذي يدور بينهم يتحوّل إلى نيران تخترق سمعي، وأنا أشاركهم الجلوس دون أن تبدر مني كلمة واحدة، كنتُ فقط بين لحظة وأخرى أختلس نظرة منكِ فأرى حجم الاحتقان الذي يتداعى من وجهك بسببي.
كل نظرة إليك كانت تدمّرني، وتلهب النيران بين ضلوعي، فهاهي المرأة الوحيدة التي استطاعت أن تهزني من العمق، وأنا أكتم مشاعري نحوها سوف تصبح من نصيب غيري، هاهي المرأة التي أحببتها كل الحب، وتعلّق فؤادي بها كل التعلق سوف تغادرني إلى حضن رجل آخر، وهاهي ساعة المغادرة المشؤومة تُقرع بكل حسم، حينها بلغتُ قراري كي أخرج عن كتماني وأواجهك بالحقيقة.

لبثتْ خجي تنظر إليه موحية بأنها تسمع منه هذا البوح لأول مرة، فقال وهو يبادلها نظرات الحب الفائضة: في اليوم التالي تقصدتُ أن أرقبك، وعندما رأيتك قادمة من بعيد تحت حمل الحطب الذي كان مثبتاً على ظهرك بواسطة حبل، هرولتُ إليك حتى وقفتُ بجانبك، عندها توقفتْ بك قدماك، ثم صرتي تجففين العرق الذي يتصبب بغزارة من وجهك المحمر، قلتُ لك: خجي إن كنتِ تحبين خزنَدار، فسوف أقوم بتقديم التهنئة إليكما، وإن كنتِ تحبينني، فسوف أقدم على كل ما أستطيع من أجل أن نهنأ بحبنا.

بعد أن التقيتك ياحبيبة العمر، لاتوجد قوة على سطح الأرض تفرّق بيننا سوى قوة رفضك لي.

احمّرت وجنتا خجي في تلك اللحظات وهي تصغي إليه بانصات تام، فقال: لم تخرج كلمة واحدة من فيكِ إذذاك، لكن نظراتكِ إلي كانت أفصح من أي كلام يمكن لك قوله، فانشرح صدري وعدتُ جارياً إلى البيت؛ في منتصف الطريق واجهني خزنَدارالذي بدا أنه كان يراقبني، توقف في دربي وبات يوبخني قائلاً: لو كانت لديك مروءة لما التقيت خلسة فتاة مخطوبة أدخلك أبوها بيته، واعتبرك أحد أبنائه.

فار الدم في عروقي عند ذاك فقلتُ له دون أن أملك زمام نفسي: خجي لاتريدك ياخزنَدار، خجي تحبني وسوف نتزوج رغماً عنك، وأنت لاتمثل ما أمثله بالنسبة لقلبها، هذه هي الحقيقة التي عليك أن تدركها جيداً، أنا التقيتُ خجي لأن أحدنا هائم في غرام الآخر، وقد اتفقنا على الزواج.

لاأعرف كيف تسرّعتُ بقول كل هذا الكلام دفعة واحدة له، وهو يرمقني بنظراته دون أن يتكلم، وعندما رآكِ تتقدمين بخطواتك إلينا بادركِ القول : هل صحيح ما يقوله سيامند يا خجي؟.
وجهتي إليه تلك النظرة التي أدرك معها ردّك البالغ، ثم استدار إلي رافعاً قبضته ليسدد لكمة إلي، فتنحيتُ جانباُ، ثم انهلتُ عليه لطماُ ولكماً حتى خار على الأرض مستسلماً.

أدركتُ في تلك اللحظات وأنا أنظر إليه، أنه لم يعد لي موطئ قدم في القرية، وأن أباه سوف يكيد لي كيداً، ويتربّص بي الدوائر، ويجنّد رجاله للنيل مني، من جهة أخرى لم يعد بي تصوّر للعيش في ذاك البيت بعد الذي وقع، ولم أعد أتخيّل النظر إلى أحد من سكّانه بعد أن يأتي خزنَدار ويخبرهم بما جرى، ثم رأيتُ أن بقائي بذاته يعني قبولي أن أبقى مكتوف

اليدَين وأنا أرى حبيبتي التي تحبني تُزف إلى غيري على مرآة مني دون أن أقدم على فعل شيء من أجلها.

فور وصولي البيت ودون أن أحدّث أحداً، اعتليتُ صهوة جوادي، وانطلقتُ به كسهم طائش أمدّ بصري في كل الاتجاهات لعلي أقع على تجمّع خيم الغجر الذين تركتهم، وقد عزمتُ الأمر كي أستعين ببعض أصدقائي من رجال الغجر حتى يكونوا عوناً لي على رجال زعيم العشيرة وأنا أطلب يدك من أبيك علناً.
لم يبق أمامي سوى ذاك الحل، لذلك لم يهدأ لي بال وأنا أجوب الجبال والسفوح والتلال بحثاً عن أي علامة يمكن أن ترشدني إليهم.

صمتَ قليلاً، ثم استدار إليه معتذراً بأنه قد تركه وبات يتحدّث إلى خجي، فقال: لاعليك ياسيامند، إنني أستمتع بكلامك .. أرجوك اكمل، لا تقطعه.

قال:عند ذاك أدركتُ أنني في مرحلة مصيرية حاسمة من أجل الظفر بمحبوبتي ، أو أنني أنهزم دونها، فتبقى مشاعر الهزيمة تستبدّ بي طوال العمر.

كان حبي لخجي يزداد ساعة إثر ساعة، وكان تصوّر خزنَدار يتقدم إليها يلهب النار في كياني، وأنا أتخيّل بأن خجي ربما يسومها اعتقاد بأنني لذتُ بالفرار وقد تخليتُ عنها بعد الذي سببته لها من حرج، ولن يكون بوسعها أن تبدي أي ممانعة عندما يأتي ذاك الخطيب لزفافها.

أرخى الليل سدوله دون أن أفلح برؤية ما يمكنه أن يكون دليلاً لي إلى تلك الخيم، عندها اتخذتُ من مغارة مخبأ لي، قضيتُ فيها ليلتي وقد غدا رأسي فريسة لأفكار مشتتة.
عندما انتشر الضوء على سفوح الجبال الصامتة، مضيتُ على خيلي ثانية في البحث حتى دارت علي ليال ثلاث، فتراءى لي في ظهيرة جمع من الخيم، تقدّمت إليها بفرحة غامرة، وعندما بلغتها، فُجعتُ بأنها ليست خيمي المنشودة، بل هي خيم لغجر دونهم.

دعوني إلى الجلوس، وتناول الطعام الوفير الذي لفت نظري، عندئذ قالوا لي: هذا ليس طعامنا، بل هو طعام عرس ابن زعيم قبيلة، يُقال أن لاامرأة في كردستان تضاهي عروسته التي تُدعى خجي حسناً.

تلمستُ سيفي، ثم طلبتُ منهم إرشادي إلى طريق الذهاب إلى تلك القرية، وعندما أشاروا لي إلى ذلك، قفزتُ إلى ظهر الخيل موجهاً إياه صوب القرية.

ترامى صوت خجي ببحة أسى: كانت ساعات شديدة البؤس تمرّ علي وأنا أخوض معركة أفكار نشبت في مخيلتي وبدأتُ قوتي تخور تحت سطوتها: ما الذي وقع لسيامند .. أين اختفى .. هل يعقل أن زعيم العشيرة قد انتقم منه ..كيف لي بعد أن التقيتُ ذاك الشاب الوسيم الشجاع وعاهدته على الحب، أن أتزوّج شاباً طائشاً ما زال يعيش تحت وصاية أبيه، أتزوّجه عنوة بقوة المال والسيف والرجال.

كل شيء جذبني إلى سيامند، عذوبته التي تقطر عسلاً
شجاعته التي تعبق بمسك الرجولة
إخلاصه الذي كنقاء حليب الأم
حبه الشامخ كهامة جبل.

وكما لو أنني انتفضتُ من كابوس، اخترق صراخ سيامند ضجيج العرس، ورأيته واقفاً بخيله المُسَوَم، أمامي شاهراً سيفه الذي أخذ يلتمع في يده تحت أشعة الشمس قائلاً بأن الرجل الشجاع في هذا العرس عليه أن يتقدّم فيبارزه بالسيف على مرآة من الحضور.

انتظر بعض الوقت دون أن يتقدّم أحد، وقد خيّم سكون على المكان، بعد ذلك أخرج من حوزته نقوداً ذهبية ونثرها على المغني، وضارب الطبل، وعازف المزمار، وطلب منهم معاودة الغناء والعزف وإشهار أن العرس هو له.

امتثلوا لذلك وبدأت عبارات الشاباش تصدر من أفواههم وسيامند يقذف إليهم النقود، ثم رأيته يدنو إلي ويقول: أما تزالين تريدينني ياخجي ؟
قلتُ: أجل يا سيامند أريدك أنت.
إذ ذاك مدّ يده بحركة سريعة، وسحبني من مجلسي بثوب عرسي، ووضعني خلفه على صهوة خيله الأشهب.

قال سيامند: بدا لي في تلك اللحظات المصيرية أنني في سباق مع الزمن، فقد ظفرتُ بحبيبتي، بيد أن أرتالاً من الخيول انطلقت تطاردني وأنا التفتُ إليها بين لحظة وأخرى، وقد أصاب الذعر حبيبتي، لكن خيلي لم يخب ظني، فقد أخذ يستجيب للسرعة التي فاقت سرعة خيولهم، وبدأتُ ألمس مدى المسافة الشاسعة التي أخذت تبعد بيننا حتى تواروا عن أنظارنا.

وحوافر الحصان تجري بجسدينا المتّحدَين على صعقات برق، غمرني
إحساس طائر بأنني حظيتُ بقسمتي في الحياة،
ظفرتُ بحصة الروح، وليس أمامي درب سوى درب الاحتفاظ بأميرة عشقي.

كل لحظة حرمان اكتويتُ بلظاها،
تبرعمت إلى لحظة ظفر وهبتها لخجي

كل لمسة حنان افتقدتها،
أمست لمسة حنان ضممتُ بها خجي

كل دمعة شوق سكبتها،

تحوّلت إلى دمعة لقاء سكبتها في حضور خجي

كل ترنيمة عشق تخيلتها،
أصبحت ترنيمة عشق دندنتُ بها لخجي

خجي التي علمتني معنى الرجولة،
علمتني كيف يتحوّل الحب إلى قضية،
علمتني كيف أرقص،
وأغني،
وأبكي ،
وأضحك في لحظة واحدة .
وأنا هائم في حب خجي،عرفتُ متعة ترقرق دموع الشوق في العينين
خجي التي عزفتُ لها أجمل الألحان قبل أن أراها
غنيتُ لها أروع الأغاني قبل أن ألتقيها
خجي التي استحضرتها في نومي،
وفي يقظتي،
في ضحكي،

وفي بكائي.

تحولت إلى قمر في سمائي،
إلى شجرة ورد في صحرائي،
خجي التي أتت لتستفتح نبضات القلب،
ثم تضع عليه ختم حبها.

هكذا شعرتُ برفقة حبيبتي بأننا تركنا خلفنا قحط عالم قاحل، وولجنا حواف عالم سحري شيّدتْ لبناته خفقات قلبينا.
كل الدروب بدت مشرعة أمامنا،
غدت الجبال الخضراء تُسمعنا عذوبة موسيقاها،
تتراقص الأشجار طرباً في دروبنا،
الزهور تنثر إلينا كل ما ملكت من عبير،
حتى الطيور في السماء بدت تشاركنا عرسنا.
سمعتُ صوت خجي عنذاك : مهلاً يا حبيبي، فقد بلغنا برّ الأمان.

حينذاك خففتُ من سرعة الجواد، وبدأتُ أجول بنظري عن موضع نأخذ فيه قسطاً من راحة، فقد بدا على خجي الإرهاق، بل حتى الجواد نال منه إنهاك بعد كل تلك المسافة الشاقة التي قطعها وهو يحملنا على صهوته منطلقاً بأقصى ما يملك من قوة.
بلغنا موضعا تتكاثف فيه أشجار الكستناء، والصفصاف، والبلوط،، والسرو، فقدتُ الخيل إلى أعلى جبل بدا أمامنا، وعندما توقفتْ به قوائمه، قفزتُ إلى الأرض، ولأول مرة بدأتُ أنظر إلى ساحرتي على صهوته، كم كان منظراً بديعاً، أحسستُ مع تلك النظرات بمدى مسؤولية ما أقدمتُ عليه، وأن خجي وضعت قدمَي على طريق الحياة الأكثر جدوى.

مددتُ راحتَي يدَي إلى راحتَي يديها، وفي لحظة رأيتها في حضني على إيقاع حلّة فستان زفافها الناصع كبياض ثلوج جبال كردستان الشاهقة .
ربطت الحصان حينذاك بجذع شجرة سرو، وأمسكتُ بيد حبيبتي، مضيتُ بها حتى عثرنا على موضع طاب لنا المكوث فيه.

بدأت أشعر بجبل من التعب يحط على بدني مع لحظات استلقائي على ظهري، ورأيتني أتوسد ساق حبيبتي، وقد دست أناملها بين ثنايا شعري.

تلذذتْ نفسي لأول مرة مذاق عسل الحب، أحسستُ بأننا غدونا في أكثر أركان الأرض أمناً.

غفوتُ وأنا أتمتم لنفسي: مادامت يد خجي بيدي، فإن العالم كله سيكون طوع أمري، خجي هي زبدة الحياة، هي صفوة أيام العمر.

سوف نصنع معاً عالمنا الخاص بنا، ننجب أطفالاً يشبهوننا، أسمّي الولد الأول
(شمزين) كناية بأبي، والبنت الأولى (بهروز) كناية بأمي، نعلّمهم صيد الأدغال، والسباحة في الأنهار، وسباق الخيل، نعلمهم أن الحب هو قلب بدن الحياة، وأن حياة بلا حب، هي بدن بلا قلب.
قالت خجي : بدت تلك اللحظات تمضي علي بنشوة لم يسبق لي أن أدركتها وقد اعتراني إحساس بقوة الطمأنينة أدركتُ معها بأنني أحسنتُ الاختيار، وقد انفتحت صفحة جديدة في دفتر حياتي.

غمرني إحساس وأنا أنظر إلى حبيبي يتوسد ساقي غافياً، بأن قوته تفوق قوة كل تلك الجبال التي تحيط بنا.

الفصل الرابع

في ذروة هذه المشاعر التي انشرح لها صدري، لاأدري كيف لفتت نظري تيوس من الأيائل، تمضي معهم ظبية جميلة.
عددتُ التيوس، فكانت سبعة، وبعد قليل ظهر أيل أعرج، أعور، مكسورالقرنين، تقدّم من الأيائل، واستطاع أن ينتزع منها بالقوة تلك الظبية الجميلة، ثم يقودها معه على مرآة من تلك التيوس.

بدا الأمر غريباً أمام ناظرَي، فكيف سمح التيوس بذلك، وكيف تمكن ذاك الأعرج ، الأعور من انتزاع تلك الظبية الوديعةّ؟!
وبغتة شعرتُ بقطرة مقارنة تتقطر في قلبي، لم يكن ذلك مستحبا على نفسي؛ بيد أنني استمررتُ في تلك المقارنة المقيتة فقلت بيني وبين نفسي: ألم يكن أخوتي سبعة، ثم ألم يستطع سيامند أن ينتزعني منهم بالقوة ويتفرّد بي كما تفرّد ذاك الأيل بتلك الظبية؟.

لم أملك نفسي من الاستغراق في البكاء، وأنا أمضي في تخيّل هذه المقارنة دون أن أنتبه أن دموعي الغزيرة تتساقط على وجه حبيبي.
قال سيامند وقد ارتسمت بسمة على وجهه: يا غاليتي، عندما بدأتُ أتحسس بقطرات ندى عينيك تبلل وجهي، خال لي أن السماء غدتْ تمطر، فتحتُ عينَي وألقيتُ نظرة خاطفة إلى كبد السماء، فلم أر غماماً ولا مطراً.
انتفضتُ إثر ذلك، وهالني ما رأيتُ عندما أدركتُ أن دموعك التي تنسكب من عينيك مدراراً هي التي بللتْ وجهي.
لاأخفي عنكِ يا عزيزة القلب، أن ذلك بثَّ فزعاً رهيباً بين ضلوعي وقد تسرّب إليّ تكهّن أنكِ خلال هذا الوقت الذي استغرقتُ فيه بالنوم، اكتشفتِ بأن قرارك بالهرب معي جاء متسرّعاً، وناتجاً عن دوافع عاطفية غير متأنية بشكل كاف.

هذا الشعور حطّمني ياخجي، بتُّ معه لاأرى شيئاً حولي، وجهتُ إلى نفسي توبيخاُ تلو آخر وأنا أقول: كيف يا سيامند تتسبب بكل هذا الأذى للمرأة الوحيدة التي خفق قلبك لحبها، كان عليك أن تتأنى قبل أن تتخذ ذاك القرار، أن تفعل ما باستطاعتك حتى تكون سعيدة في حياتها، لكنكَ يا

سيامند آثرتَ نفسك التي جنحتْ إلى ترجيح كفة أنانيتك حتى تظفر بها، هاهي تسكب دموع الندم على ما أقدمتْ عليه وقد هجرت أهلها.
كيف أذنت لنفسك يا سيامند كي تسبب لها كل هذه الأوجاع، ألم تكن تدرك بأن خجي ما تزال صغيرة، وزهرتها للتو تتفتح على عشرين ربيعاً، وقد حللتَ بكل جلافة لتحرمها من أمها وأبيها وأخوتها، تحرمها من طبيعة تلك الحياة اليومية التي ترعرعت ونشأت على إيقاعها، تفسد عليها عرسها.
ليتك يا سيامند لم تظهر في حياتها، ليتك كنتَ فريسة لفكَّي ذاك الذئب المسعور الذي طاردك إلى دارها، وكأنه كان يدرك بأنه يقودك إلى هذه المأساة التي انتهيت إليها.

رفع رأسه، وأخذ يمد نظراته إلى بعيد وهو يتمتم كما لو أنه يحادث نفسه خفية، وقد اغرورقت عيناه بدموع غزار: أذكر تلك اللحظات الأليمة جيداً كما لو أنها حدثت في حلم، مددتُ يدي إلى كفكِ، وصرتُ أطبع عليها القبلات متوسلاً منك الصفح:
خجي، أعتذر على كل ما بدر مني بحقك، أدرك حجم الكارثة التي ألحقتها بك نتيجة أنانيتي كي أظفر بكِ، لكن اغفري لي يا عزيزتي بقلبك الكبير، فإن حرماني من عاطفة الأم، انعكس على قوة حبي لكِ، بدأتُ أعوّض من

خلال حبي لك كل ما حرمته من حنان أمي المفقودة، فأصبح حبي إليك مارداً لا يعرف الحدود.

هكذا صنعتني ظروف تربيتي القاسية، فإما أن أعطي كل شيء، أولا أعطي شيئاً، إما أن أنجرف إلى الحب بكل طاقاتي ومكنوناتي، أولا أحب، وهكذا أردتُ للمرأة التي سوف أقترن بها، فإما أن تعطيني كل شيء، أولا تعطيني شيئاً، إما أن تحبني كل الحب، أو لا تحبني قط، إما أن تهيمن على كل مفاصل حياتي، أو تبقى دون ذلك.

ضحكت خجي وقالت: هكذا ألفتك يا عمري، وهكذا ستبقى، ولو لم تكن هكذا، لما كنا الآن معاً نتذوّق عسل لحظات قشدة العشق.

نظر إلى عينيها بتوق عميق كما لو أنه يكتشف جماليتهما لأول مرة، ثم أخذ كفيها بحضنَي كفيه، أخذتْ الأنامل تتشابك وتتعانق مع بعضها البعض، ثم هتف ونبرات صوته تفيض حباً : كم كنتُ تعيساُ في دائرة تلك اللحظات المشؤومة التي تغلغلتْ في قاع نفسي، كنتُ أبأس مخلوق على وجه الأرض، وأنا أتخيّل مجدداً بأنني سأخسركِ بعد أن ظفرتُ بكِ،

خسارتي لك كانت تعادل خسارتي للحياة برمتها، لم أكن أتخيّل بأنني سأكون قادراً على مدّ خطوة واحدة في دروب الحياة دونكِ، لكن دفقات الحياة بدأت تتصاعد إلى عروقي عندما صدح صوتكِ الشجي في مسمعي كما لو أن بلبلاً يغرّد فيتحوّل تغريده في أذنّي إلى كلمات : بل أنا أحببتكَ كل الحب يا حبيبي، وليس من مخلوق بوسعه أن يحيدني عن قراري، أنا لك وأنت لي يا سيامند، أنا عالمك كله، وأنت عالمي كله.

عندها فقط بدأتُ أنظر إلى خلابة الطبيعة بعين العاشق، أكتشف للتو قيمة اللحظات الثمينة التي أقضيها معك، ونحن نسترخي في صعيد الجبل. كل ما في الطبيعة بدا سحرياً في ناظرَي، دبّتْ في بدني لياقة حياة لم يكن لي بها عهد من قبل.
قالت خجي: لاأعرف لماذا قفزتْ تلك المقارنة إلى مخيلتي، فباتت صورتي تتمرأى في تلك الظبية، ووتمرأى صور أخوتي في تلك التيوس، وأرى صورتك تتمثّل في ذاك الأيل الأعرج.

قال سيامند: آنذاك خطرت لي فكرة أن أقتل ذاك الأيل، وأجلب رأسه لخجي حتى تتخلّص من تلك المقارنة، ولم أتردد من تنفيذ الفكرة، فقلت على الفور: أين قاد الأيل الأعرج تلك الظبية؟
وعندما أشارت إلى الجهة، مالبثتُ أن وثبتُ قائلاً: سوف أجلب لك رأس ذاك الأيل يا حبيبتي.

مضيتُ بحثاً حتى وقعتُ على ذاك المنظر الذي راعني، فجمدتُ في أرضي، ورحتُ أعدّ الأيائل السبعة مرات عديدة، ثم أنظر إلى ذاك الأيل الأعرج وقد انتزع تلك الظبية الوديعة دون أن تجسر التيوس على فعل شيء.

تكررت مقارنة خجي في مخيلتي وأنا أصوّب نظري في جسد الأيل الأعرج وأهمهم في قرارة نفسي: خجي تخيّلتني بالنظر إليك، وها أنذا أتخيلني وأنا أنظر إليك، لكنني جئتُ لأثبت لها ولنفسي بأنك لست سيامند.
ثم أخرجتُ سهماً، وصوّبته إلى جسده لينتفض بقوة مع اختراق السهم بطنه، عندئذ هرعتْ الظبية إلى التيوس التي مضتْ بها في فسحة البيداء، فأبرزتُ خنجري بأقصى سرعة ونططتُ إليه حتى استويتُ جيداً على

جسده، وتمكّنتُ منه، لكنه عندما وضعتُ الخنجرعلى رقبته، انتفض بشكل مباغت لم يكن يخطر لي على بال، وبكل ما بقيت لديه من قوة أنفضني عن جسده لأتهاوى متدحرجاً إلى هوة الوادي العميق، وكل شيء يدور بي حتى رأيتني أقع على شجرة يابسة، وينغرز غصن منها كما لو أنه حراب في ظهري.

التفت إلى خجي وقال: في تلك اللحظات البائسة وأنا ألفظ أنفاسي الأخيرة، تعلّقت نظراتي في أعلى الوادي السحيق لعلي أظفر بنظرة وداعية أخيرة منكِ، كم راودتني رغبة جامحة لأصرخ ملء حنجرتي: خجي .. خجي. بيد أن صوتي أخذ ينوس لحظة إثر لحظة.

تنهّدت خجي وقالت وهي تغالب دموعاً أخذت تجري من مقلتيها، وتبتلع ريقها عن غصة: على حين بغتة بينما كنتُ متأملة في مستقبل الحياة الجديدة التي بدأتُ أناشد ساعاتي الأولى فيها، أحسستُ بمدية تنغرز في كبدي، جفلتُ على إثر ذلك وقد تطايرت حروف اسمك من فمي كشظايا.

استنفر كل عضو فيَّ، وغدوتُ أهرول يمنة ويسرة وحروف اسمك تتطاير من فمي: سـ سـ يـ يـ اا مـ مـ نـ د.

كان صوتي يتوزع في كل الاتجاهات، ويزيدني هلعاً وأنا أشعر بغراب يطاردني وهو يحوم على رأسي.
ليس بوسع مخلوق يا سيامند أن يتخيّل إذذاك حجم الفزع الذي استبدّ بكل مفصل من مفاصلي، حتى صرتُ أتلمّس تقطّع أنفاسي وأنا أتهرول من شجرة إلى شجرة، من صخرة إلى أخرى، من منخفض إلى آخر.

لم أكن راغبة في الوقوف حتى لا أفسح مجالاً لمخيلتي كي تلهبني بهواجس وتكهنات وتصورات، كم تمنيتُ لو جسرتُ على إلغاء مخيلتي وإيقافها عن بث أي تصوّر مفزع من تلك التصورات التي غدتْ حُبلى بها، كنتُ أهمهم في نفسي: سيامند، أين أنت يا سيامند .. لماذا تركتني فريسة لهذه الوحشة، وأنت تعرف أن حياتي دونك هي ليل قاحل طويل لايعقبه نهار.
صرتُ أتوقع أي شكل تقع عليه نظراتي بأنه أنت، فأهرع إليه لأُصدم بخيبة،
في حنايا تلك اللحظات الهلعة، وكل شيء أمام ناظرَي يأخذ مجرى الدوران، لكمتْ قدماي بصخرة، وتردّيتُ لأرى جسدي يتدحرج إلى أسفل منحدر وقد تمزّقت ثيابي، ونضح الدم من يدَي وركبتَي.

حينها فقط، ركنتُ رغماً عني لبؤس الاستسلام، فقدتُ أي مقدرة على الحراك، وقد خارت بي قواي، قبضتُ بكفَي على حبات حصى وصرتُ أضغط كأنني أفرّغ فيها شحنات ألمي؛ وفجأة انتبهتْ كل حاسة فيَّ إثردبيب حراك تناهى إلى سمعي، تجحظت عيناي، وبدأتُ ألملم بقايا قوتي حتى فلحتُ في الوقوف على قدّمي، واستطعتُ إخراج جسدي من المنخفض، وكل عضو فيَّ يرتعد ألماً وفزعاً.

استعنتُ بسمعي وأنا أمدّ خطوات وئيدة مسترشدة بما يتناهى إلي من دبيب حتى خلتُ أن الحراك بات على مقربة مني وقد شارفتُ علواً من الجبل، عندها وقع نظري على ذاك الأيل الأعرج، الأعمى، وهو مطعون بسهمك، مضرّج بالدماء.

جبتُ بنظراتي في كل الاتجاهات، فلم أقع على الظبية، أوعلى التيوس. زحفت علامات شؤم إلى نفسي، انفجرعلى إثرها غليان بكاء في حنجرتي. ركّزتُ نظري من جديد على الأيل المطعون، فرأيته يصوّب نظره إلي وهو يتحرّك، تسرّب إلي إحساس غريب عندما تعانقت نظارتي بنظراته، وبدا

المنظر محيّراً أمامي، فمادمتَ قد طعنته، وعادتْ الظبية إلى التيوس، فلماذا لم تعد إلي ؟!

حينها ترامى كلامك إلى سمعي وأنت تقول بأنك ستجلب لي رأس الأيل، أفزعني ذلك، لكن رأيتني مجبرة للمضيء خلف تداعيات بدأت تدهمني، فبدأتُ أتحسس وكأن كفاً امتدّت إلى معدتي وباتت تعتصرها، وأنا أدير رأسي شعرة حركة إثر شعرة حركة، ربما استغرقت بي تلك اللفتة الصغيرة مئة شعرة حركة، وأنا أستدير مكرهة ليقع بصري على ذاك المنخفض، ويهبط قلبي تلك الهبطة التي أحسستُ معها بجفاف غير معهود في حلقي.

رفعتُ وجهي إلى السماء وأنا أصرخ بكل ما أوتيتُ من صوت: آه .. آه .. آه، ثم انفجرتُ نحيباً، غرزتُ أصابعي بين ثنايا شعري وشددتُ حتى امتلأت به يداي، ثم انهالت أضافري على خدَّي تحفر فيهما ليسيل النجيع إلى ثيابي.

حتى تلك اللحظات الأخيرة، لم أكن لأتجرأ كي أمدّ خطوة وألقي نظرة إلى المنخفض لعلها تحيل كل ما عشعش في مخيلتي إلى وهم، لكنني في رهبة

اللحظة عينها لم أمتلك شجاعة أن تلك النظرة ستقع عليك في قعر ذاك الوادي السحيق، بيد أن أنينك الذي انبعث إلى سمعي من الأسفل وضع حدّاً لكل هواجسي، وحسم أمري مع نفسي، فمددتُ تلك الخطوات مستجيبة لندائك وأنت تهتف باسمي بذاك الصوت الكسير لأرى رأي العين غصن تلك الشجرة اليابسة وقد تفذ من صدرك.

قال: في عمق تلك اللحظات الوداعية الأخيرة، لم أكن راغباً بشيء سوى أن أشبع عينَي نظراً إليكِ، كنتُ أبتهل إلى الله بأسمائه الحُسنى، وأنا أقاوم موج الألم أن يجعلكِ تمدّي رأسكِ من أعلى المنخفض لأنظر إليك، أنظر، وأنظر، وأنظر، ثم أغمضهما تلك الغمضة الأخيرة براحة نظر، وطمأنينة نفس.

قالت : في تلك الهنيهات المضطربة، رأيتني بغتة محاطة بخيول أخوتي السبعة، وهم يلهثون على خيولهم، ويتحلّقون حولي، يوزعون نظراتهم في كل الاتجاهات.

بعد قليل قفزوا من خيولهم، وأحاطوني بقاماتهم، أشرتُ عندذاك إلى الأسفل، فتدافعوا لتقع أنظارهم عليك .

دبّ فيهم استنفار، وهم يسعون بكل طريقة كي يصلوا إليك وينجدوك، كل واحد انطلق إلى موضع، إلاّ أنهم بعد ساعة عادوا وعلامات الخيبة ترتسم على وجوههم.

اعتراني دوّار شديد هويتُ تحتَ وطأته على الأرض، لاأعرف كم استغرق ذلك، لكنني فتحتُ عينَي وأنا أراهم ينثرون الماء على وجهي، عندها بدأتُ أرى دموع الرجال في عيونهم، وهم يصوّبون نظراتهم إلى تلك الهاوية، ويقولون: هذا جبل (سيباني خلاتي) الشاهق، ليس بوسعنا أن ننقذه.
كانت المرة الأولى التي أرى فيها أخوتي الأشدّاء يبكون، ويلطمون أكفهم بيأس على أفخاذهم.
تقدّم أخي الكبير(هاجان) إليك رافعاً صوته: سيامند، أيها الشجاع، نحن عاهدناك على روح الأخوة، وما نزال ثابتين على عهدنا، لكن بحق ذاك العهد الذي عهدناه، لا نستطيع أن نفعل شيئاً من شأنه أن ينجيك، الأمر يتجاوز حدود طاقاتنا.
بعد حين من صمت ترامت نبرات صوتك المتقطع كما لو أنه ينبعث من هوة جب: خجي هي وصيتي إليكم، أسألكم بحق الله الذي لا إله إلاّ هو،

أن تحسنوا إليها، ألاّ تُسمعوها لفظاً جارحاً .. ذاك هو خيلي الأشهب، ضعوا خجي عليه، وعودوا بها إلى البيت.

بتنا نترامق رمقات استياء فيما بيننا تحت جنح هالة من رهبة السكون، وقد استبدّ بنا إحساس بأن كل شيء فض إلى تلك النهاية القاتمة.
في أوج فورة اليأس الحالكة التي استسلمتُ لها، تلمستُ بأن نفخة مجهولة ما نُفختْ من ركن مجهول، وأطفأتْ مصباح الحياة في قعر نفسي.
كل مرتفعاتّ جبال كردستان الذي جبناها على ذاك الحصان، تقلّص حجمها في ناظرَي، وأمستْ هشيماً.
كل تلك الخضرة الممتدّة على مساحات الأرض، فقدتْ رونق الحياة، وتوشحت بوشاح الحداد، كل شيء حولي بدا فاقداً خامة الحياة، حينها يا سيامند حزمتُ أمري، وبدأ يفوح مني عطر عرفته لأول مرة، كما لو أنه عطر الموت ، بدا لي في تلك اللحظات أن للموت عطر، وقد شممتُ عطره، لكنه لم يكن يُخيفني، لأنه كان ممتزجاً بعطر اللقاء بك .

مدّ أخوتي خطوات اليأس الأخيرة إلي، أمسكوا بيدي، وقادوا جسدي المترنح حتى بلغنا خيلك المُسَوَم الذي بدا أمامنا باهتاً، علتْ غصة شديدة إلى حنجرتي كرة أخرى وأنا أستوي على ظهره.
انتابني إحساس بأنك ستظهر بغتة من هوة ذاك المنخفض، وتجري بقامتك الفارعة حتى تقفز تلك القفزة لتستوي على ظهره أمامي، ثم تنطلق بي كبرق، وأنا أتشبث بك بكلتا يدَي كما كنا منذ ساعات.

بدأتْ الجياد تمضي بنا بحوافر شديدة البطء دون أن أجسر على إلقاء نظرة واحدة أمامي، وقد لبثتُ ملتفتة إلى ذاك الركن متوقعة أنك في أي لحظة مباغتة يمكن أن تترك ذاك المنخفض، وتهرع إلي.
لم أكن قادرة على تخيّل حدوث هذه المعجزة، وأنا في حالة استدارة ظهري إليك.
عندما بدأتْ جيادنا تبتعد بنا عن رائحة المكان رفعتُ كفي لمسح دموعي، ثم تمكّنتُ خلسة من قذف خلخالي الذهبي إلى الأرض، وبعد ردح آخر من المسير، شددتُ رسن الحصان، وأوقفته قائلة : نسيتُ خلخالي في ذاك الموضع الذي كنا فيه، سأعود حالاً لأجلبه.

أوقفوا خيولهم، وهم يومئون برؤوسهم لي علامة بالإيجاب، عندذاك أدرتُ وجهة الحصان، وبدأتُ أسرع به قليلاً، وقد غمرتني نشوة شجاعة مدّ خطواتي الحقيقية إليك.

عندما دبّتْ قدماي رأس المنخفض، انفجر مني صوت حبيس: سيامند .. ها أنذا قادمة إليك ياحبيب العمر.
ترامت نبرات صوتك : لا يا خجي، لاتقدمي على ذلك أما أنا، فلم يكن الأمر بمشيئتي، لقد حدث رغماً عني.
مددتّ يدي إلى منديلي المطرّز بالذهب، وعصبتُ به عينَي، ثم انفجرتْ مني صرخة مدوية باسمك ناثرة إيقاعات الصدى في سمعي، ولم أرني إلاّ وقد ارتطم بدني ببدنك، استطعتُ بالكاد أن أزيح المنديل عن عينَي، ثم غمرتك بنظراتي وسط مقاومة وخزات الألم جراء غرز غصن من تلك الشجرة في خاصرتي.

خلعتُ خاتماً من إصبعي، وبدأتُ ألملم قواي الخائرة حتى تمكنت من وضعه في إصبع يدك اليسرى، الأكثر قرباً من القلب.

عندها بدأت تتراءى أمام ناظرَي في الأعلى قامات أخوتي، استجمعتُ كل ما بقي في حنجرتي من صوت، واتجهتُ به إليهم : ألمس منكم الصفح يا أخوتي الأعزاء، ألمس منكم الصفح، لم أجد سوى هذه الطريقة كي لا أتخلى عن سيامند.

تمّـت